

مصطفى محمود



القرآن كائن جي

القرآن كائن حي

اللغة القرآنية تختلف عن لغتنا التي نكتب بها أو نتكلم بها في أنها محكمة لا خطأ فيها ولا نقص ولا زيادة .

وقد كثر الكلام عن الآيات الكونية التي تحدثت عن النجوم ومساراتها والأرض وخلقها والحياة وبنائها .. وكيف جاءت العلوم الحديثة بالجديد المبهر من الحقائق خلال مئات السنين التي أعقبت التنزيل القرآني فلم تحرق حرفاً قرآنياً واحداً ولم تنقص آية بل توافقت جميعها مع كلام القرآن وزادته توكيداً .

كما جاء القرآن في نظم الحكم وفي الاقتصاد وفي الأخلاق وفي حقوق الإنسان وفي الأسرة وفي الزواج والمرأة والشرائع بالكلمة النهائية الجامعة .

كما انفرد بنورة في البلاغة وقفة في البيان وجمال في الأسلوب
لم يطاوله فيه كتاب .. وقد أفاض القدماء في هذا وأغنونا .

لكن يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن ربما كان أهم
من كل هذه الوجوه .. يحتاج إلى وقفة طويلة .. وهو ما أسميته
بالمعمار أو البنية الهندسية أو التركيب العضوي أو الترابط الحي بين
الكلمة والكلمة .

وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي .. الكلمة فيه أشبه
بالخلية .. فبالخلايا تتكرر وتشابه في الكائن الحي ومع ذلك فهي
لا تتكرر أبداً .. وإنما تتنوع وتختلف .. وكذلك الكلمة القرآنية
فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مئات المرات ثم نكتشف
أنها لا تتكرر أبداً رغم ذلك إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً ..
وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل .. وأنها تنفرع
تفرعاً عضوياً .. تماماً مثل البذرة التي تعطي جنراً وساقاً ثم أغصاناً
ثم أوراقاً ثم براعم ثم أزهاراً ثم ثماراً وهي في كل مرة لا تخرج
عن كونها نبات البرتقال .. ولكنها عبر هذا التفصيل تعطينا في
النهاية حقيقة نبات البرتقال .. وذلك هو الترابط العضوي أو
المعمار الحي .. والقرآن بهذا المعنى يشبه جسماً حياً .. والكلمة
القرآنية تشبه كائناً حياً أو خلية جنينية حية فهي تنفرع عبر التكرار
الظاهر لتعرض مشاهد تكمل بعضها بعضاً تماماً كما تنقسم خلية

الجنين لتعطي خلايا الرئتين والقلب والكبد والأحشاء والعظام
والجهاز العصبي إلى أن تعطينا في النهاية إنساناً كاملاً .. وقد جاء كل
هذا التنوع من خلايا متشابهة .. فذلك هو التفصيل الذي كان
مجملاً في الخلية الأولى للجنين .

وكمثال نأخذ كلمة « العلم » في القرآن .

فتجد أن العلم يأتي في البداية مجملاً بمعنى النظر في خلق السموات
والأرض .. ثم نجد هذا النظر يأتي بعد ذلك مفصلاً .. إلى الإبل
كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت
وإلى الأرض كيف سطحت .

وهذه هي علوم الإحياء والفلك والجيولوجيا والجغرافيا
كما نعرفها الآن ..

ثم ينقلنا القرآن إلى نظر من نوع آخر .

« قل سبروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة الذين
من قبلكم » .

وذلك هو النظر في التاريخ .

ثم تنوع آخر :

« قل سبروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وذلك هو النظر في التطور وعلم الأجناس .

كيف كانت بداية هذا كله .

« خلق كل دابة من ماء »

« والله خلقكم من تراب » .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

ذلك هو الأمر كما ورد مجملاً في البداية .

ثم جاء بعد ذلك التفصيل .

« من نطفة » .

ثم تفصيل أكثر .

« نطفة من منى بمنى » ٣٧ - القيامة

ثم نرى النطفة تأتي في أكثر من عشرة مواضع ، فتجدها كل مرة تأتي بمشهد تفصيل مختلف .

فهي « نطفة أمشاج » ٢ - الإنسان

أي أخلاط من صفات وخصائص متنوعة .

وذلك هو ما نعرفه الآن بالجينات الوراثية .

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر بأن النطفة المنوية هي التي تحدد جنس المولود إن كان ذكراً أم أنثى .

« خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى »

٤٦ - النجم

ثم تفصيل ثالث وهو أن هذه النطفة مقادرة بتركيبها هذا من الخالق وليست شيئاً عشوائياً من تدبير الصدفة .

« من نطفة خلقه فقدره » ١٩ - عبس

ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد مكاني .

« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » ١٣ - المؤمنین

تلك النطفة مستقرها الرحم .

ثم ينقلنا إلى مشهد زماني ، فيضع هذه النطفة في سياقها التاريخي ويربطها ببدايتها الأولى السحيق من التراب .

« فلما خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه » ٥ - الحج

ثم يعطينا تفاصيل أكثر لما حدث في هذا السياق التاريخي .

إن النطف كانت في البداية نطفة غير جنسية تتكاثر بالانقسام الخضري بدون تزاوج ، ثم تنوعت بعد ذلك إلى ذكر وأنثى وظهر التكاثر التزاوجي .

تأتي هذه الإشارة في الآية :

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا »

١٦ - فاطر

فجعل الأزواج تأتي متأخرة بعد النطف . . مما يدل على أن النطف المقصودة هنا هي نطف أولية لم يتعين فيها ذكر أو أنثى وهو ما يعرف بالتكاثر اللاجنسي : Asexual Reproduction

ثم يعطينا مشهداً آخر تفصيلياً عن تسلسل النطفة في سياقها في مراحل خلق الجنين :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

١٤ - المؤمن

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبي :

« أو لم ير الإنسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »

٧٧ - يس

وذلك الأشهاد حدث في الغيب قبل أن تولد :

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريبتهم وأشهدهم على أنفسهم ألت بربكم قالوا بلى شهدنا » .

هذا موقف أشهاد حدث للنفس قبل أن تنزل في الأرحام .

ثم مشهد عتاب ومؤاخلة :

« أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً »
٣٧ - الكهف

بعد كل هذا تكفر بخالقك .

وهكذا تتكرر كلمة النطفة فلا تتكرر أبداً وإنما تحمل في كل مرة مشهداً جديداً بحيث يتكامل معناها في الذهن كما يتكامل كائن حي من بذرة تنمو شيئاً فشيئاً إلى نبات كامل .

ثم ينتقل في مدارج العلم من النطفة نزولاً حتى أصغر شيء يصل إليه العلم . . الذرة ومثال الذرة . . فيلفت النظر إلى أن هناك ما هو أصغر من مثال الذرة .

« لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » .

ثم يعود فيلفت نظرنا إلى أن كل هذه العلوم التي أشار إليها إنما هي علوم كونية خاصة بالكون الخارجي الموضوعي وما فيه من نبات وحيوان وإنسان وجبال وأنهار وأقمار وشموس ونجوم . . ولكن هناك نوع آخر من العلم مطلوب منا أن ننظر فيه وذلك هو العلم بالنفس .

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ،

ثم نوع أكبر من العلم بالنفس هو العلم بالله .

« فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » .

وبطول صفحات القرآن وسوره يعرفنا بهذا الإله .. بوحديته وصفاته وأسمائه وأفعاله وذاته .

ثم يتكلم عن علم آخر هو العلم بالغيب .

وغيب الغيب هي ذات الله ولا طاقة لأحد بعلمها .

فالله « ليس كمثله شيء » .

وكذلك العلم بالساعة .

« علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو » .

لكن هناك غيب آخر هو الملائكة والجن والسموات السبع وسورة المنتهى واللوح المحفوظ والعرش ، وذلك غيب يطلع الله عليه من ارتضاه من رسله .

« لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .

وهكذا تتكرر كلمة العلم في القرآن فلا تتكرر وإنما تنفرع وتنوع وتتفصل مثل شجرة تعطى الجذور والسيقان والأغصان والأوراق والأزهار والثمار .. فهناك علم بالكون وعلم بالنفس

وعلم بالله .. ثم تتفصل هذه العلوم بمحدودها وأنواعها في رحلة الكلمة داخل القرآن .

والعلوم الكونية وحدها لا تصنع من الإنسان عالماً .. فالعلم بظواهر الأشياء ومقاديرها وعلاقاتها هو دائماً علم ناقص .. وأهل الغفلة هم الذين يقتصرون على هذه العلوم الظاهرة .

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وهؤلاء هم الذين « فرحوا بما عندهم من العلم » وكذبوا الرسل وكفروا بالغيب وأنكروا الله فهلكوا .

ولا يكون العلم كاملاً إلا إذا أوصلك إلى العلم بنفسك ثم إلى العلم بالله ، فذلك هو العلم حقاً .

بهذه الرحلة لكلمة « العلم » في القرآن وانتقالها من الإجمال إلى التفصيل ثم إلى تفصيل التفصيل لا نفع على تكرار أبدأ وإنما نجد نمواً عضوياً يتكامل في الذهن عبر السياق القرآنى كما تنمو البذرة إلى جنر وساق وفروع وزهر وشجرة كاملة مثمرة .. وكما يفتح المفتاح الواحد على غرف للتوم وقاعات انتظار وقاعات للأكل وكافتيريا وصالة استقبال ومكاتب للإدارة ، فتجتمع للذهن صورة كاملة لفندق .. وذلك ما أسميته بالمعمار القرآنى أو البنيان

العضوى أه الترابط الحى بحيث تجد كل كلمة تكمل الأخرى وتشرحها وتفصلها دون تكرار ودون زيادة ودون نقصان ، وبحيث يصبح القرآن وكأنه جسم مؤلف من خلايا أو معمار هندسى مبنى من لبنات محسوبة مدروسة أو كونه مترابط متماسك ليس فيه فصول أو لغز أو تكرار أو اختلاف أو تناقض .

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وهذا هو القرآن . . حكمه حكم بدن فيه روح .

ولهذا يقول لنبىه عن القرآن .

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

فيسمى القرآن روحاً . . وهذه الخصائص تشهد بالفعل أنه روح .

وذلك هو الكمال المعجز .

وكشال آخر نجد كلمة « الجنة » تتكرر كثيراً فى القرآن ، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أنها تقدم فى كل مرة مشهداً مختلفاً . فهى مرة جنات وعبون ، ومرة جنات ونهر ، ومرة جنات من نخيل وأعنان .

وبعد عرض مشاهد الحرير والامستبرق والذهب والفضة والخور العين والأزواج المطهرة والعسل والخمر واللبن والكؤوس التى مزاجها الكافور والزنجبيل والمساكن الطيبة فى جنات عدن والغرف التى من فوقها غرف مبنية . . يفاجئك القرآن بعوالم من الأسرار ، فيقول مشيراً إلى الجانب الغيبى من الجنة :

« لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وفى مكان آخر يقول إنهم فى « مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وفى مكان آخر . . « ونزعتنا ما فى صدورهم من غل » .

وفى مكان ثالث « نورهم بسعى بين أيديهم وبأيمانهم » .

وكل هذه أسرار .

ثم هو بعد أن يصف كل المشتبهات فى عالم المادة وعالم الغيب يعود فيقول . . « ولدينا مزيد » .

« ورضوان من الله أكبر » أكبر من هذا كله .

تلك هى رحلة كلمة الجنة فى القرآن . . عالم بخلاف من الصور لا تكرار فيه ، يخاطب الجوع المادى ، ويخاطب الجوع الروحى ، ويخاطب الوجدان الفلسفى ، ويخاطب عرائس الخيال

والأحلام ، ويخاطب طموح الإنسان الذي لا يرضى بشئ .
فيطمشه في النهاية .

« وسوف يعطيك ربك فترضى » ٤ - الفصحى

ولقد سبق أن قلنا في مقالات سابقة أن كلمات القرآن كلمات منفردة بذاتها وبخصائصها لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة ، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات في مجال مغناطيسى محكم . . حتى الحرف لا يأتى في القرآن إلا لضرورة ولا يمكنك أن ترفع حرفاً من مكانه أو تستبدله بحرف آخر .

يقول القرآن عن الصبر على المصيبة :

« إن ذلك من عزم الأمور » ١٧ - لقمان

ثم نراه يضيف حرف « اللام » للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول . . « إن ذلك لمن عزم الأمور » .
« ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور »

٢٣ - الشورى

لماذا أضاف حرف « اللام » في الآية الثانية .

لأن الصبر على أذى الغريم الذى تستطيع أن ترد عليه بأذى مثله يحتاج منك إلى عزم أكبر . . فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة لك فيها وبالمثل نرى الله يقول لليهود الماديين :

« اتقوا النار » .

ويقول للمؤمنين أولى الأبواب :

« اتقوني يا أولى الأبواب » .

لأن العقليات المادية لا تخاف إلا النار المادية . أما أولوا الأبواب فإنهم يعرفون أن خالق النار أخطر شأناً من النار ، ولهذا نراه يضيف الضمير فيقول :

« اتقوني يا أولى الأبواب » .

وهكذا نرى أن الحروف في القرآن لا ترد اعتباطاً وإنما تأتى بحساب وحكمة .

ومثال آخر نرى القرآن يقول :

« ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ١ - التكاثر

فلماذا . . زرتم . . لماذا لم يقل سكنتم المقابر ، أو دخلتم

المقابر ، أو حللتم في المقابر ، أو ملأتم المقابر .

ولماذا قال « زرتم » .

ليلفت النظر إلى أن المقام في القبر مقام مؤقت وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا دخول سكنى .

تدل على ذلك آية ثانية عن الموت جاءت في سورة آل عمران
- ١٥٤ :

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

فيصف رقدة الموت بأنها مجرد ضجعة وأن القبر مجرد مضجع ...
والضجعة بعدها انتباه وقيام .

وتلك دقة بالغة في التعبير تجعل كل كلمة مقصودة لضرورة
ولا يمكن استبدالها .

ثم نرى القرآن يختار الفعل المتعدد المعاني للمناسبة المتعددة
المعاني . . فهو يقول عن الأرض :

« والأرض بعد ذلك دحاها » .

والفعل « دحى » هو الفعل الوحيد في القاموس العربي الذي
يعنى البسط والتكوير معاً ولا يصلح للتعبير عن حال الأرض
إلا هذا الفعل ، لأن الأرض منبسطة في الظاهر مكورة في الحقيقة
و . ثم إن تكويرها بيضى أشبه بتكوير « الدحية » أو البيضة .

ولا يوجد في المعجم العربي أى لفظ آخر يعطى هذه المعاني
المتعددة ويستوفى الوصف الظاهر والوصف المستتر للأرض غير
هذا اللفظ . . فنحن أمام لفظ ليس له بديل .

وبالمثل نراه يصف الرياح بأنها « لواقح » :

« وأرسلنا الرياح لواقح » .

والرياح تلاقح بين السحب الموجية والسحب السالبة التكهرب ،
وهي أيضاً تحمل جوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء
التأنيث في الزهر . . ثم هي أيضاً تحمل بخار الماء الذي يتزل مطراً
على الأرض فيلقحها ويخصبها .

فانتقاء اللفظ هنا انتقاء مطلق بحيث لا يصلح في القاموس
لفظ غيره . . فلا يمكن استبداله بحال .

ثم إنك لا تستطيع أن تؤخر أو تقدم كلمة من مكانها
في السياق لأن التأخير والتقديم في الكلمات القرآنية هو الآخر محسوب
وهو دائماً لوظيفة ولهدف .

فالزانية تأتي قبل الزاني في الآية :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

٢ - النور

بينما نرى السارق يأتي قبل السارقة في الآية .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ٣٨ - المائة

ذلك لأن المرأة هي التي تبادر بالخطوة الأولى في الزنا منذ
أن تقف أمام المرأة لتضع المكياج وتلبس العريان . . أما في
السرقه فالرجل هو الأكثر إيجابية .

وبالمثل نجد السمع مقدماً على البصر في ستة عشر موضعاً .
ومعلوم الآن أن جهاز السمع أدق تشريحياً من جهاز البصر ، وأن
السمع أرفع ، وأن تنوع النغمات أكثر من تنوع الألوان ، وأن
موهبة السمع تصل إلى إمكان الاستماع إلى الوحي من الملائكة . .
ولقد علمنا أن موسى سمع ربه ولكنه عجز عن أن يراه ، وذلك
بسبب محدودية الجهاز البصري .

وهذا هو القرآن . . بنياناً محكماً من الألفاظ لا تستطيع أن
ترفع فيه كلمة أو تبدلها أو تؤخرها أو تقدمها . . تتكرر كلماته
بحساب والحكمة ولهدف لكي تكشف عن مكنونها وتبوح بأسرارها
وثراتها . ثم إن هذا التنوع والتفصيل ينتهي بالقارىء إلى كمال مراد
مقصود وإلى تمام في الفهم والتصور .

« وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته »

١١٥ - الأنعام

فذلك هو التمام المقصود .

ولا يقدر على هذا اللون من تركيب الألفاظ بشر .

وبين الذين يعكفون ويتأملون ويلرسون في هذا الموضوع . .
« موضوع الترابط القرآني » . . مفكر إسلامي جديد هو الأخ
محمد العفيفي ، اعتزل في الكويت يتأمل في أسرار اللفظ القرآني
. . وله ثلاثة كتب في هذا الباب . . القرآن تفسير الكون والحياة . .
مقدمة في التخلف والتقدم . . والقرآن دعوة حق . . وكلها محاولات
جادة لاستجلاء هذا العلم الشريف وكشف دقائقه . . وهي إضافة
ثمينة للمكتبة القرآنية . . لا غنى عنها .

النفس والروح

في اللغة الدارجة نخلط دائماً بين النفس والروح ، فنقول
إن فلاناً طلعت روحه . . ونقول إن فلاناً روحه تشبه كذا ،
أو أن روحه تتعذب ، أو أن روحه توسوس ، له أو أن روحه
زهقت ، أو أن روحه اطمأنت ، أو أن روحه ناقت واشتقت
أو ضجرت وملت . . وكلها تعبيرات خاطئة ، وكلها أحوال تخص
النفس وليس الروح .

فأنتي تخرج من بدن الميت عند احشرجة والموت هي نفسه
وليست روحه .

يقول الملائكة في القرآن للمجرمين ساعة الموت :

« اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » . ٩٣ - الأنعام

والتي تذوق الموت هي النفس وليس الروح .

« كل نفس ذائقة الموت » ١٨ - آل عمران

والنفس تذوق الموت ولكن لا تموت . . فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن ، والنفس موجودة قبل الميلاد ، وهي موجودة بطول الحياة ، وهي باقية بعد الموت ، وعن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها يقول الله : إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد وأشهدها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد أباه على الكفر .

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا » .

١٧٣ - الإعراف

فذلك مشهد أحضرت فيه الأنفس قبل أن تلبس أجسادها بالميلاد ، وليس لأحد علم بأن يكفر بعلّة كفر أبيه ، فقد كان لكل نفس مشهد مستقل طالعت فيه الربوبية . . وهذا استقرت حقيقة الربوبية في فطرنا جميعاً .

ثم إن الروح لا توسوس ولا تشهى ولا تهوى ولا تضجر ولا تميل ولا تتعذب ولا تعاني هبوطاً ولا انتكاساً . . إنما تلك كلها من أحوال النفس وليس الروح .

يقول القرآن :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » . ٣٠ - المائدة

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . ١٦ - ق

« ونفس وماسواها فأطاعها فجورها وتقواها » .

٧ و ٨ - الشمس

« بل سئلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » ١٨ - يوسف

« وضاعت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه » .

١١٨ - التوبة

« إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم » .

٥٥ - التوبة

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » .

١٣٠ - البقرة

« ومن يوق شح نفسه فألكم هم المفلحون » . ٩٠ - الحشر

« وأحضرت الأنفس الشح » . ١٢٨ - النساء

« وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » ٥٣ - يوسف

والنفس هي المتهمة في القرآن بالشح والوسواس والتجور
والطبيعة الأماره ، والنفس في القرآن ترق وعروج ، فهي يمكن
أن تتزكى وتطهر ، فتوصف بأنها لواحة وملهمة ومطمئنة وراضية
ومرضية .

« يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية
فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . ٢٧ - الفجر

أما الروح في القرآن فتذكر دائماً بدرجة عالية من التقديس
والترتبه والتشريف ، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى
أو شهوة أو شوق أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر
أو ملل ولا يذكر أنها تخرج من الجسد أو أنها تذوق الموت .
ولا تنسب إلى الإنسان وإنما تأتي دائماً منسوبة إلى الله .

يقول الله عن مريم :

« فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . ١٧ - مريم

ويقول عن آدم :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

يقول « روحي » ولا يقول روح آدم .

فينسب ربنا الروح لنفسه دائماً .

« وأيدهم بروح منه » أي من الله . ٢٢ - المجادلة

ويقول عن القرآن ونزوله على النبي عليه الصلاة والسلام :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . ٥٢ - الشورى

ويقصد بالروح هنا « الكلم الإلهي انقراآت » .

« يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »
١٥ - غافر

« يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

٢ - النمل

والروح هنا هي الكمة الإلهية والأمر الإلهي .

والروح دائماً تنسب إلى الله ، وهي دائماً في حركة من الله وإلى

الله ولا تحرى عليها الأحوال الإنسانية ولا الصفات البشرية .

ولا يمكن أن تكون محلاً لشهوة أو هوى أو شوق أو عذب .

ولهذا توصف الروح بأوصاف عالية .

فيقول القرآن عن جبريل : إنه روح القدس . والروح الأمين .

ويقول عن عيسى أنه « كلمته ألقاها إلى مريم » وروح

منه . أي روح من الله .

أما النفس فهي تنسب دائماً إلى صاحبها .

« وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . ٧٩ - النساء

« ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه » . ١٥ - الاسراء

« وضاعت عليهم أنفسهم » . ١١٨ - التوبة

« وما أبرئ نفسي » . ٥٣ - يوسف

« وكذلك سولت لي نفسي » . ٩٦ - طه

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ٩ - الحشر

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » .

١٣٠ - البقرة

وحينما تنسب النفس إلى الله فتلك هي الذات الإلهية .

« ويحذركم الله نفسه » . ٢٨ - آل عمران

ذلك هو الله الذي ليس كمثل شيء وهو مما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل له شيئاً ولا يصح أن نقيس النفس الإلهية على نفوسنا ..

فالنفس الإلهية هي غيب الغيب .

نقول عسى لربه يوم القيامة :

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » .

١١٦ - المائدة

فالنفس الإلهية لا تتشابه مع النفس الإنسانية إلا في اللفظ ولكنها شيء آخر البتة ..

« ليس كمثل شيء » . ١١ - الشورى

« لم يكن له كفواً أحد » . ٤ - الإخلاص

والسؤال إذن :

ما نصيب كل منا من الروح ؟

وماذا نعني حينما نقول إن لنا روحاً وجسداً ؟

ثم ما علاقة نفس كل منا بروحه وجسده ؟

أما نصيبنا من الروح فهو النفخة التي ذكرها القرآن في قصة خلق آدم .

« إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي

فقعوا له ساجدين » . ٧١ و ٧٢ - ص

وما حدث من أمر لتسوية والتصوير والتمج في صورة آدم يعود فيتكرر في دحل الرحم في الحبة الحسية كل ما . فيكون لكل ما تسوية وتصوير ثم نسخة ربانية حينها نبياً لأسوة ويستعد العمل لتبقى هذه النسخة . وحدث يكون في أشهر است من حياة اجسية - وينتقل الخلق بهذه النسخة من حال إلى حال . .

يقول ربنا عن هذه المراحل :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضعة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . ١٤ و ١٥ - المؤمنون

فيقول عبد النسخة : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . . إشارة إلى نقلة هائلة نقل بها المضغة المكسوة بالعظام إلى مستوى لا يبلغه ولا يقدر عليه إلا أحسن الخالقين . . وذلك بالنسخة الربانية .

ويتكلم عن هذا التمج في الجنين بعد تسويته في آية أخرى عن نسل آدم .

« ثم جعل نسله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . ٨ و ٩ - السجدة

وتفهم من هذا أن السمع والبصر والفؤاد هي من ثمار هذه النفخة الروحية . . وإيه بهذه المواهب ينقل الإنسان من نشأة إلى نشأة ومن مستوى إلى مستوى ، وهذا هو معنى . . « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

إن نصيبنا من الروح إذن هو نصيبنا من هذه النفخة . . وكل منا يأخذ من هذه النفخة على قدر استعدادة .

وبفضل هذه النفخة يصبح للواحد منا خيال وضمير وقيم وعالم من المثل . . والجسد والروح فينا أشبه بأرض الواقع وسماه المثل .

وعلاقة نفس كل منا بروحه وجسده هي أشبه بعلاقة ذرة الحديد بالحبال المغناطيسي ذي القطبين .

والذي يحدث للنفس دائماً هو حالة استقطاب ، إما انجذب وهبوط إلى الجسد إلى حياة الواقع وطين الغرائز ولشبهوات ، وهذا هو ما يحدث للنفس الجسدانية الحيوانية حينها تشاكل الطين وتجانس التراب في كثافتها ، وإما انجذب وصعود إلى الروح إلى سموات المثل والقيم والأخلاق الربانية ، وهو ما يحدث للنفس حينها تشاكل الروح وتجانسها في لطمتها وشفافيتها . . والنفس طوال سيرة في حركة وتذبذب واستقطاب بين القطب الروحي وبين

لقطب الجسد . . مرة تطفى عليها ناريتها وطيتها ومرة تغلها
شدهيتها وطهارتها .

والجسد والروح هما مجال الامتحان والابتلاء ، فتتلى النفس
وتتمتعن بهاتين القوتين الجاذبتين إلى أسفل وإلى أعلى لتخرج سرها
وتفصح عن حقيقتها ورتبتها وليظهر خيرها وشرها .

ومن هنا نفهم أن حقيقة الإنسان هي « نفسه » ، والذي يولد
ويبعث ويحاسب هو نفسه ، والذي يمتحن ويبتلى هو نفسه ، وما
يجرى عليه الأحوال والأحزان والأشواق هي نفسه . . أما جسده
وروحه فهما مجرد مجال تماماً مثل الأرض والسموات في كونهما
مجال حركة بالنسبة للإنسان لإظهار مواهبه وملكانه . . فكما أعطى
الله هذه النفس عضلات (جسداً) كذلك أعطاها روحاً لتجبا
وتعمل وتكشف عن سرها ومكنونها وتناشر خيرها وشرها .

وبهذا المعنى تكون كلمة « تحصيل أرواح » كلمة خاطئة ،
فالأرواح لا تستحضر ولا يمكن لأي روح أن تستحضر ، لأن
لروح نور مسوب في الله وحده . وهو يسمح فيها هذا النور
بستيرته . وهذا النور من الله وإلى الله يعود ولا يمكن حشره
أو استحضاره . . أما ما يحشر ويستحضر فهي الأنفس وليست
الأرواح . . هذا إذا صح أن هؤلاء الناس يستحضرون

أنفساً في جلساتهم . . وأغلب الظن أن ما يحضر يكون من الجن
المصاحب لهذه الأنفس في حياتها (القرناء) ، وكل من له في حياته
قرين من الجن يصاحبه ، وهو يحكم هذه الصحبة الطويلة يعرف
أسرارها ويستطيع أن يقلد صوته وإمضاءه ، وهذا الجن هو الذي
يلابس الوسيط في عرفة التحضير المظلمة ، ويدهش الموجودين
بما يحسبونه خوارق .

أما الأرواح فلا يمكن استحضارها .

أما الأنفس فلا يحشرها ولا يحضرها إلا ربها .

والنفس لا يمكن أن تتحول إلى روح وإنما هي في أحسن
أحوالها ترتقى حتى تشاكل الروح وتجانسها بقدر ما تتخلق
بالأخلاق الربانية ، وبقدر ما تقترب من المثال النوراني (الروح التي
نفخها الله في الإنسان) .

كذلك يمكن لهذه النفس أن تتدنى وتهبط حتى تشاكل الشياطين
وتجانس إبليس في ناريتها .

والنفس التي تنطهر وتتركى حتى تشاكل وتجانس الروح
في لطفها هي التي يقربها الله من عرشه يوم القيامة ، وهي التي
التي يقول عنها إنها ستكون . . في مقعد صدق عند مليك مقتدر . .
القمر ٥٥

.. لأنها بهذا التطهر والترقى تصبح نفساً ربانية مكانها إلى
جوار الله .

أما النفوس المظلمة التي تهبط بفجورها وغلطها إلى الدرك
الشيطاني فهم الذين يقول عنهم ربهم يوم القيامة :

« إنهم عن ربهم يومئذ نحجرون » .

١٥ - المطففين

وهؤلاء سيكون مكانهم مع النفوس النارية السفلية في قاع
الظلمة والجحيم . أما الروح فلا مكان لها في جنة أو جحيم وإنما
هي نور من نور الله تنسب إليه ، وهي منه ولا يجرى عليها ابتلاء
ولا محاسبة ولا معاقبة ولا مكافأة . . وإنما هي المثل الأعلى
في الآية :

« والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » . ٦٠ - النحل

« وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .
٢٧ - الروم

وذلك عالم المثل النوراني الذي يستمد قنصيته وورائيته من
من كونه من الله ومن أمر الله .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم
من العلم إلا قليلاً » .

لماذا خلقنا الله؟

في كل لحظة منذ ميلاد الإنسان حتى موته . . منذ يقطته
في أول ساعات الصباح حتى دخوله في الفراش لينام . . وهو
بتعرض لامتحان تلو امتحان .

كل لحظة تطرح على الإنسان موقفاً وتتطلب منه اختياراً بين
بديلات .

وهو في كل اختيار يكشف عن نوعية نفسه وعن مرتبته
ومتركه دون أن يدري .

شهوته تناديه ليُشبعها .

قد تكون شهوة إلى طعام ، أو شهوة إلى امرأة ، أو شهوة
إلى سلطة ، أو شهوة إلى جاه .

وإشباع أى شهوة يستدعى تأجيل الأخرى ، وتكشف النفس
عن منزلتها بما تفصله وبما تعجل إليه من شهوات من أدنى السلم
حيث الإنسان هو الحيوان الذى لا يشغله سوى شهوة بطنه أو عصبه
التدسلى إلى الطاعة الحبار الذى لا شاغل له سوى شهوة التسلط على
الآخرين ومحقهم واستغلالهم . . يكشف لك اختيارك عن نوعك
ومنزلك ورتبتك .

ويقول لك سلوكك . . من أنت . . بين هؤلاء الشهواتيين . .
وأى نوع من الحيوان أنت . . فإذا رفعت هذه الشهوات جميعها
واستجعت لنداء المنطق والاعتدال . . فأنت من أهل النظر والعقل
وأنت إنسان ولست حيواناً .

ولكن الإنسانية أيضاً درجات والعقل درجات .

وأدنى درجات العقل هو العقل المادى الحس الذى لا يعترف
إلا بالواقع المحدود الذى يراه ويعيشه وينكر تماماً ما وراء هذا
الواقع الملموس المحسوس .

ويكد يكون هذا العقل عصباً ملحفاً بالحيوان الذى حكى
عنه يعمل فى خسة شهواته ، وذلك بانتماس المبررات واصطناع
المنطق والبرائع لاقتصاص اللذات .

من احتكت فى سلوكك لهذا العقل فأنت مجرد حيوان
متطور تستخدم طليقة المسلس بدلا من الخالب ، وتتأمر بالعقول
الألكترونية بدلا من الانطلاق وراء غضب عشوائى غير محسوب .

ولكن النتيجة هارالت واحدة . . إنك مجرم . . وحياتك
هى مخطط إجرامى . . مهما بدت فى طاهرها مهذبة معقولة
ومنطقية .

ألم يقتل ستالين خمسة ملايين فلاح . . ألم يفعل ذلك بحجة
منطقية أنه إنما يقتل الرجعية ويدفع بعجلة التاريخ إلى الأمام . .
وأنه إنما يقتل الفلاح لنصرة الفلاح .

تلك إذن هى أدنى درجات العقل وأخس منزلة من منازل
المنطق .

فإذا ارتقيت درجة فأنت تستشعر بشيء وراء الواقع .

ولكن هذا الاستشعار لا يزيد عن شبهة وظن . .

ولكن هذه الشبهة وهذا الظن يؤديان بك إلى أن تكون أقل
مادية وأقل ظلماً وأقل صلماً وأقل غروراً وأقل اقتناعاً بالمنطق
المقفل وبالواقع القليط المحسود .

وبين حين وآخر سوف تظهر عليك بدوات وسوانح تضحية
وكرم .

وسوف تعطيك لمسة الغيب بعض المواقف الشاعرية .

وسوف تتأرجح بين هذه المنازل على حسب ما في نفسك من
خير . . وما في عقلك من نور .

فيذا ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي للغيب والإحساس
الصوفي لما وراء الواقع سوف يغلبان على عقلك المسجون في
في زناينة الماديات ، وسوف تفتح لك نوافذ من البصيرة والحكمة
تضيء الظلمة التي ترين عليك من عواشي الخس وسوف يبدو
كرم الخلق كأنه طبعك .

ولكن استشعار الغيب لم يرتفع بعد ليصبح يقيناً . . وإنما هو
مجرد ترجيح .

فإذا حدثت أحد عن وجود الله فأنت تميل إلى تصديقه .

ولكن ليس لدرجة أن تصلي وتصوم وتدين بالعبادة .

وغاية ما تبغ إليه من حال . . أن تعتقد أن هناك ثمة قوة وراء
الأشياء . . وأنت تخشى هذه القوة .

ولكن ماعدا ذلك غير واضح واهتمامك بالدنيا يغطي على
هذا الإحساس . . وأنت تمضي في حياتك تحاول أن تحقق أقصى
النفع ولكنتك تتحرى ألا تؤذي أحداً .

فإن ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي يتضح أكثر
وعواشي الخس تنحسر عنك أكثر وأكثر ، ويخالجك اليقين
بأنك لست وحدك . . وبأنك لم تكن أبداً وحدك . . وإنما
كان الله دائماً معك وأنت تسمى هذه القوة لأول مرة باسمها
الديني . . الله . . وتصفها بما وصفها به الكتب السماوية من أسماء
حسنى . . وتسند إليها العناية والحق والوحي .

وتتفاوت المراتب في هذه الرتبة الشريفة من المؤمن العادي
الذي يصلي ويصوم ويتحرى الخير ، ولكن نفسه تغلبه إلى لسقوط
في الدنيا بين حين وآخر . . إلى المؤمن صاحب الإيمان الرفيع
الذي يعيش في شهود وحضور وامثال للذات الإلهية على الدوام
فيعبده الله كأنه يراه .

ومتزلتك في كل درجة من هذه الحالات يشهد عليها سلوكك
فإذا كنت من أهل هذا الإيمان الرفيع فلا بد أن تكون من أهل
الإحسان . . تتقن كل عمل يوكل إليك دون نظر إلى مكافأة . .
وتعامل أعداءك بالتسامح والنصح وتجاهد لبطل يبدك وقلبك

ولسانك ولا تحشى في الحق لومة لائم وتزجر شهبواتك وهي
ما زالت همساً في انخاطر وقيل أن تنمو إلى دوافع وأعمال .

ولا حقيقة لحال إلا إذا شهد عليه عمل ، ولهذا يفتن .
المواقف بين لحظة وأخرى من لحظة تصحو إلى لحظة تنام وكل
لحظة تصعك في موقف .

وكل موقف يتطلب منك اختياراً بين بديلات ، وذا عيب
من الامتحان ألا تختار . . لأن عدم الاختيار هو في ذاته نوع
من الاختيار . . ومعناه أنك ارتضيت لنفسك ما اختارته لك
الطروف أو ما اختاره أبوك أو ما اختارته شلة أصدقاءك الذين أسست
نفسك لهم .

ويعني هذا أن الحياة تعريك في كل لحظة وتكشف حقيقتك
وتنزع عنك قشرك لتخرج مكنونك ومكنومك .

والذكر الإلهي هنا هو أن يضعك في موقف بعد موقف
ومشكلة بعد مشكلة . . وكل مشكلة تتطلب حلاً . . وكل حل يتطلب
اختياراً . . وكل اختيار يكشف عن حقيقتك رغماً عنك مهما
حاولت الاستحفاء .

وبقدر ما تمتد حياتك يوماً بعد يوم . . بقدر ما تتمرق عن
وجهك الأقنعة . . ويظهر ويفتضح أمرك وينتهك سرّك .

والله يعلم حقيقتك وسرك من البداية . . ولكث أنت لا تعلم
ولا تريد أن تعلم . . لأنك مدع . . وكل منا مدع . .

كل منا يتصور أنه رجل طيب وأنه مستحق لكل خير ،
حتى الجبارون الذين شقوا وبجحوا وعدبوا شعوبهم تصوروا
أنهم مصلحون .

كل منا جاء إلى الحياة ومعه دعوى عريضة مزعومة بأنه
رجل صالح وطيب .

ولهذا اقتضى عدل الله أن يطعننا على حقائقنا حتى لا تقوم
أعداء حيناً يبدأ تصنيف الناس في الآخرة حسب درجاتهم .
وحتى يكون التصنيف على حسب الحقائق وليس على حسب
المزاعم والدعاوى .

ولهذا خلق الله الدنيا .

خلقها لتكشف الحقائق على ما هي عليه . . ويعرف كل
واحد نفسه ويعرف مقدار خيره وشره . . ثم ليعرف الأبرار
خالقهم وربهم وليدوقوا رحته قبل لقائه .

ثم خلق الآخرة لتكشف فيها فيها حقائق الروبية وعالم
الملوكوت والجبروت والغيب .

والله لا يخلق أى شىء إلا بالحق والحق ، لأنه سبحانه هو الحق .

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق »

٨٥ - الحجر

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بعين »

٣٨ - النحل

« ما خلقتهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون »

٣٩ - النحل

« ما خلق الله ذبذ إلا بالحق » ٥ - يونس

« خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون »

٣ - النحل

« ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل

سمى ٨ - الروم

« وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس

بما كسبت » ٢٢ - الجاثية

« خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم »

٣ - التباين

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً »

٢ - الملك

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه » ١٩١ - آل عمران

« أم حسبكم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »

١١٥ - المؤمنون

لا عبث ولا عبث ...

وما نرى حولنا من تداول الأحوال على الناس من فقر إلى

غنى إلى مرض إلى عز إلى ذل إلى حوادث مفاجئة إلى مصائب

إلى كوارث إلى نجاح إلى فشل ، ليست أموراً عبثية ولا مصادفات

عشوائية ، إنما هي ملابسات محكمة من تدبير المدبر الحكيم الذى

يريد أن يفض مكنون النفوس ويخرج مكتومها .

« والله يخرج ما كنتم تكتمون » ٧٢ - البقرة

إننا جميعاً شجعان حق يدعو داعى الحرب فيبدي كل واحد

عذراً ويختلق كل واحد ظروفاً تمنعه ولا يثبت ساعة الضرب

إلا القليل .

ولولا محنة القتال ما انكشفت النفوس على حقيقتها ، ونحن

جميعاً كرماء حتى يدعوا داعي النذل ، فتتكش الأيدي التي كانت
مملودة بدعوى السخاء ولا تبسط بالكرم إلا أكف معدودة .

وكما قال المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود بفقر والإقدام قتال

والمشقة هي التي كشفت لنفوس ومضحت دعاويها ، ومن
هنا جاءت ضرورتها .

وما كنا نعرف صلاة لصلب لولا احتساره .

ولهذا خلق الله الدنيا ليعرف الضعيف ضعفه ، ويعرف
القوى قوته ، ولتتمضج الدعاوى الكاذبة ، ويتم العدل باقتناع
كل نفس باستحقاقها وعدالة مصيرها النهائي في أعلى عليين
أو أسفل سافلين .

خلق الله الدنيا ليعق الحق ويبطل الباطل .

ويصدق أيضاً الكلام الذي يقول . . إن الله خلقنا ليعطينا . ●
فهو كلام يؤدي بنا إلى نفس المعنى .

فهل يصح عطاء إلا بمعرفة الاستحقاقات أولاً ليكون العطاء
حماً

إن معرفتنا لأنفسنا أيضاً مطلوبة لتكون قناعة كل واحد
بعطاءه قناعة حقيقية . ولينتهي الاعتراض .

معرفة النفوس لحقائقها . . ومعرفة الإنسان لخالفه . . هي
الحكمة من خلق الدنيا .

« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً »

٢ - الملك

وما كانت هذه المعرفة لنتم إلا بالدم والدموع ، لأن النفوس
ما كانت لتسوح بأسرارها وحقائقها إلا بالدم والدموع .

ولأن كلا منا يخفى حقيقته وراء أقنعة غريبة من الشعارات
والأكاذيب ، ويسدل على وجهه حجاباً من الافتعال والتمثيل
وبساتيم النفاق والملازمة والجمالة .

فكان لا بد من حادث عفيف ليحترق هذه الحجب .

والدنيا كانت ذلك الحادث .

لقد أخرجنا الله من العدم وكان كل من حقيقة مكونة
وأعطى كلا ما اليد والقدم ليضر وينفع .

فأما الذين تحروا النفع والبر والخير فهم أهله . . وماواهم
إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وأما أهل انصرار والأذى والظلم فهم الملعونون عنه وعن رحمته . . . واللعن عن الله نار . . . لأن كل ماسوى الله نار . . .

وعلاوة أهل الله هي عرفاتهم لربهم من قبل لقائه . . . أن يعرفوه في هذه الدنيا . . . وأن يشهدوا الدنيا دالة عليه .

وكلام القرآن بأن الله خفيتا لعبده هو كلام يشتمل على كل هذه المعاني السالفة في باطنه .

وحينما تقول الآيات :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ٥٦ - الداريات

فإنها تعني بداهة .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون » .

لأنه لا عادة بلا معرفة .

والمعنى أنه خفيتا لمعرفة ، فإذا عرفناه عبدناه . . . وإذا عبدناه تفاضلت عبادتنا ، وتفاضل إيماننا وإنكارنا ، وتفاضلت منازلنا . . . وبالتالي تفاضلت استحقاقنا حسب ما تعرض له من امتحانات في الدنيا . . . وبالتالي تفاضل العطاء من المعطى :

وعطاء الله مهلول للكل .

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » ٢٠ - الإسراء

فإن الله خلق ليعطي . . . وكلنا مستحقون للعطاء بحكم رتبة العبودية ، وكل هذه المعاني باطنة في كلمة « ليعبدون » .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

٥٦ - الداريات

أما الذي يقول إن الله خلقنا لأنه خلق ولا بد للخالق أن يخلق ، فقد أوجب على الله أن يخلق هذا أو يخلق ذلك . . .

ولا حق لأحد أن يوجب على الله شيئاً .

ولا يوجد قانون يوجب على الله شيئاً .

لأنه لا توجد سلطة أو حكم خارج عن الله أصلاً ، وإنما الله يخلق ما يشاء .

ومشيئة الله لا تحددها قوانين . . . لأنه سبحانه مصدر جميع القوانين .

والمشيئة مردودة إلى الله وبالتالي ليست مسببة بحيث يمكن أن تسأل : ولماذا خلق الله هذا ولم يخلق ذلك ؟

إن « لماذا » هنا لا مكان لها بتاتاً ولا يصح أن توجه .

مسحاه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ٢٣ - لآلئيه

وكنه المراد لا يعلمه أحد .

والشوال يقال بوجه إجمال .

ومجال التأمل هو في الحكمة العامة للخلق وللدنيا

أما السؤال تفصيلا عن خلق هذا وخلق ذاك ، فهو أمر
عبي . . وهو في العمى لا يعلمه أحد .

يقول الصوفي ابن عربي . . إن الله خلق هذا وخلق ذاك لأنهما
سألاه في العدم أن يرحمهما بإيجادهما فأوجدتهما . . وأن الله لا يأتي
بأحد إلى الدنيا كرها . . وإنما كل ما جاء إلى الدنيا جاء بطله .

وهو كلام غيبي .

وهو كلام يستشع أنه كان لنا وجود في العدم . . وأن العدم
غير معدوم .

وهو كلام يجرنا مرة أخرى إلى المعضلة التي أثارناها في كتابي
« الوجود والعدم » .

ولئن يريد أن يقوص وراء الأسرار أكثر أن يعود إلى الكتاب .

وحسب مؤمن متى يريد أن يفت عبداً لا يفت ولا يبقى
بنفسه في وادي العناء . . أن يقول :

آمنت بكلمات الله على مراد الله .

وما خفي عني فأنه به أعلم .

الصوفي والبحر

مد الرجل ساقه في استرخاء لذيذ ونظر إلى البحر المديد
الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه . وترك روحه ترضع من هذه
الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشعة الذائبة في المياه .

شيء ما في ذلك البحر كأن يبدو لعينه وكأنه من وراء العنق
ومن وراء الحس . . شيء كالغيب يسطع من خلال المظهر .

وتذكر كلمات ذلك الصوفي الذي قال أنه اشتاق إلى ربه
وأنه احترق إليه شوقاً وكاد عقله يهلك حزراً عن بلوغه لولا أن
نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب ومن خلال الجمال
المتجلى في الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين .

وذلك هو الشرب والسكر الذي يحكي عنه الصوفية .

شرب الجوار المتحلى في الوجود.

دعك الشرب المعيب اندي يترك الروح نشوانة هيانة تهتف .
الله . . الله .

وقد أدرك صاحبنا في جسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى
المعبد بذى حكى عنه لصفوة وشعر بدت شرب السجيب
وهتفت روحه بشوكة وقد أدركت صرغاً من نكت لخصر د لإنية
المتجنية في الأشياء .. هتفت همالة سكرانة .. الله

لقد اتصت روحه لأول مرة بنبع الحسن ومصدر الفتنة
وسر الخلال والجمال في الأشياء . . . وياشر تلك الرجمة الكهربائية
وأحسن بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر الساري في الوجود
وفي نفسه .

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التي كان يسأل عنها
المحب الهيمان طرب الوقت ويبحث عنها ويرتحل إليها وهي طول
الوقت معه دون أن يدري . . في سواد عينيه . . وفي حنايا
صلوعه . . وأقرب إليه من حصل الوريد .

ومن عجب أني أحزن إليهم
وأسال عنهم من أوى وهو معي
وترصد لهم عيني وهم في سوادها
ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

فما كان الحسن والجمال والفتنة التي لمح طرفاً منها في الشماه
الشفاه والحدود والقدود إلا مدداً من ذلك الغيب المغيب ، ولا كان
إلا تجلياً لذات الحسن المتفردة . . « الذات الإلهية » التي هي
أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينه من سوادها وأقرب إلى لسانه
من نطقه .

إن ليلاه فيه . . وهو يقطع البرادي بحثاً عنها .

« وذات الحسن المنفرد » التي أفاقت من حسنها ابتدع على كل شيء . . . أقرب إليه من حمل وريده ، وأوثق اتصالا به من دمه في شرايبه .

وحينما يترك الصوفي ذلك يصيبه برد السلام ، ويهدأ في جوانحه طائر القلب ، وتنشر عليه السكينة لواءها ، ويصبح صاحب الوجه النوراني والنفس المطمئنة الذي لا تنزله الزلازل ولا تحركه النوازل .

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر وأمامه
قطعت من عنب مثلع . . ورأى كل حبة عنب وكأسها تخترن داخلها
موراً . . وحينما ذابت في فمه برداً وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها
وتبوح له بمكونها . . وكان في تذوقه خلواتها شيئاً كالعبادة . .

وكأنما كان ربه هو الذى يطعمه ويستقيه مباشرة ودون وساطة
ويناوله من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب ..

وتذكر قول عميد لعشاق الإلهيين ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب عدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خيراً للكرم من قبل أن يخلق الكرم . وتلك
هى خير أسر المودع فى الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء .

تلك هى خير « فلماذا نفخت فيه من روحى فقروا له ساجدين » ..
خير الأنوار المودعة فى الأشياء .

وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر
هذه الأنوار . . وكما باشر سرها وذاق حلاوتها مجدت جوارحه
وهتفت نفسه . . الله . . الله .

وشوش له البحر بهذه الكمات وكشفه بتلك الأمرار وهو
يهدهده بأمواجه ويتأثر كحبات الماس على وجهه وساقيه .

وقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة . .
كان باطن البحر يقول له . . باطنى وسع العالمين . . وسع الحياة
والموت . . وسع كل شئ عذماً .

كان البحر أشبه بالرمز المهموس والإشارة الدالة وشمس
المضروب على القدرة .

« مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاج
كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية
ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار »

ذلك هو الضوء فى المصباح ، واللؤلؤة فى الصدفة ، والروح
فى الإنسان ، والجمال فى البحر ، وتلك هى النفخة التى تدل على
النافع « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار » .

فالزيت يسرى فيها من الذات المباركة التى تضىء بذاتها بدون
حاجة إلى نار تشعلها . . الذات التى نورها مصدر كل الأنوار .

وتلك هى الشجرة المباركة المترعة عن الجهات . . فلا هى شرقية
ولا هى غربية . . فهى فوق المكان والزمان ومترعة عن الأسباب ،
فهى تضىء بلا نار . . تلك هى الذات الإلهية المتعالية عن الصور
.. ومع ذلك تتجلى فى كل الصور .

« هو الظاهر والباطن » .

ظاهر فى البحر والشمس والنجوم وفى وجوه احسان
ولكنه غيرها جميعاً .

هو الظاهر سبحانه ولكنه ليس بظاهر .

وتلك هي الفتنة التي يقع فيها المؤمن والكافر .

تقول له المظاهر الجميلة وهي تدعوه إلى نفسها بجمالها .

« إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

فإذا اختزن بها ووقع في أسر جمالها وعبدتها وقع في الشرك الخفي
وهلك .

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد
المال وإخوان النساء .

وإذا أدرك أن فتنها ليست منها ولكن من الله المتجلى فيها .
وأنها كالمصاييح في زجاجات . ولكنها مصاييح لا تضيء
بذاتها ، وإنما بمدد وأسلاك من شجرة مباركة هي التي تأتي منها
الإشارة لكل المصاييح . . إذا أدرك ذلك تجاوز بعبادته كل المظاهر
وكل المصاييح المنيرة ، وتوجه إلى الله الذي ينيرها كلها بنوره .
ويخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحدة . . واحتضن الله وحده
دوناً عنها بالعبادة . . وإذا فعل ذلك نجح . وذلك حال القلة من
من العارفين .

وهذا سر الدنيا . . ولهذا خلقها الله . . لتمتعن بإغراءها معادن
النفوس ويتميز بها العارف من الجاهل . . وتميز بها المراتب

والمنازل والدرجات . . ويعرف بها أهل الصدق صدقهم وأهل
الكذب كذبهم حينما تنشر الأعمال وتهتك الأسرار في يوم الحشر
ويوم التغابن الذي لا ينفع فيه ادعاء الأدعياء . . يوم يشعر كل
إنسان أنه غبن نفسه حينما تعجل للذة تافهة وزائلة لا تساوي شيئاً
وحرم نفسه من ميراث جنة لا تنهد لذائذها .

ووشوش له البحر . . وهمس الموح .

وتنأثر كالماس على وجهه وقدميه .

واتصل السر بالسر .

ومضى الخوار .

مَنْ أَنْتَ؟

من أنت . . حينما تتردد لحظة بين الخير والشر . . من
تكون . . ؟ !

أتكون الإنسان الخير أم الشرير أم ما بينهما . . ؟ !

أم تكون مجرد احتمال للفعل الذي لم يحدث بعد . . ؟ !

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر
على اختيار وتمضي فيه باقتناع وعزم وإصرار ، وتهادى فيه وتخذ
إليه وتستريح وتجد ذاتها .

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطعولة أو أفعال المراهقة
ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جبن أو عن إكراه .

ولأنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها ، لأن بلوغ الرشد يبدأ معه ظهور المراكز والمحاور التي منتمو عليها الشخصية الثالثة .

واختيارات الإنسان في خواتيم حياته هي أكثر ما يدل عليه ، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته وتكون قد انتهت ذنوبها إلى استقرار وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية .

ولهذا يقول الصوفيون . . العبرة بالخواتيم . . وما يموت عليه بعد من أحوال وأعمال وما يشغله في أيامه الأخيرة هو ما سوف يبعث عليه . . تماماً كما ينام النائم فيعلم بما استقر في بابه من شواغل لحظة أن وقد لينام .

ولهذا أيضاً لا تؤخذ النفس بما فعلته وتندمت عليه ورجعت عنه ، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته ، فإن الرجوع عن الفعل ينشئ عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجة مع العوارض العارضة التي لا ثبات لها .

وقد أعطى الله للإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب . . يختار منها علواً وسفلاً ما يشاء . . أعطاه معراجاً عجباً يتحرك فيه صاعداً هابطاً بلا حدود . . ففي الطرف الصاعد

من هذا المعراج تلتفت وترق الطامع وتصفو المشاوب والأخلاق حتى تضاهي الأخلاق الإلهية في طوعها ، لأعلى (وذلك هو الجانب الروحي من تكوينه) وفي الطرف الهابط تكثف وتعطى الرغبات والشهوات وتتدنّى الفرائض حتى تضاهي أحيوان في بهيميته ثم الجهاد (في جهوده وآلياته وقصوره الداني) . . ثم الشيطان (في ظلمته ومسلطته) وذلك هو الجانب الجسدي الطيني من التكوين الإنساني .

وبين معراج الروح صعوداً ومنازل الجسد والطين هبوطاً ، تتذبذب النفس منذ ولادتها ، فتتسامى ها وتتردى ههنا بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط ، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها . « قل كل يعمل على شاكلته » .

ومتى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتأدى ويمضي في اقتناع وإصرار على خبره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله .

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية أو « الأنا » . . هي شيء غير الجسد . . وهي ليست شيئاً معلوماً بل هي سر وحقيقة مكبوتة لا يجلوها إلا الابتلاء والاختبار بالمغريات .

وما الجسد والروح إلا الكون المسيح الذي تتحرك فيه تلك النفس علواً وهبوطاً بحثاً عن المثلة التي تشاكلها وتضاهيها والبرح

الذى يتسبب سكناها فتسكبه . . . فثنا من يسكن برج النار
(الشهوات) وهو مازال في الدنيا ، فلا يبرح هذا البرج حتى
المات ، فتلك هي النفس التي تشاكل النار في سرها وهي التي
سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار .

ودلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده ، لأنه
وحده الذى يعلم السر وأخفى ، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن
هذه الحقيقة المكنونة في الغيب التي اسمها فلان والتي مازالت
سراً مستتراً لم يكشفه الا بتلاء والاختار بعد والتي لم تولد بعد ولم
تنزل في الأرحام . . . يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحكم المحيط أن
تلك النفس لن تقر ولن تستريح ولن تختار إلا كل ما هو نارى
شهوئى سلبى عدى . . . يعلم بها ذلك وهي مازالت حقيقة مكنونة
لاحية هـ ولا وجود ليجبى في العدم .

وهذا العلم ربى يس علم بره ولا علم قهر بل هو علم حصر
وإحصاء . والله بهد نعم لا يحير نفساً عن شر ، ولا ينهى نفساً عن
خير . فهو يعلم حقائق هذه الأنفس عن ماهى عبه دور تدح

فإذا جاء ميقات الحق (وجميع هذه الأنفس تطلب من الله
أن يخففها ويرحمها بإيجادها وهي مازالت حقائق سالبة في العدم)
أعطى الله لتلك النفس اليد والقدم واللسان لتضر وتنفع وأعطاها

ذلك الكون الفسيخ الذى اسمه الروح والجسد لتفرح فيه صاعدة
هابطة تختار من منازلها ما يشاكلها لتسكن فيه . . . فإذا سكنت
واستقرت وتسجلت أعمالها قبضها الله إليه إلى يوم البت والحساب
المعلوم . . . حيث تقرأ كل نفس كتابها وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد
العر في أن يحتاج بعد ذلك حينما يضعه الله في مستقر الجنة
أو مستقر النار الأبدية .

وقد أعلز الله وأندر الجميع من قبل ذلك بالرسل والكتب
والآيات ، وأقام عليهم الحجة بما وهبهم من عقل وضمير وبصيرة
وحواس تميز الضار من النافع والحيث من انطيط .

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة في النار أن تعطى فرصة
أخرى وأن ترد إلى الدنيا لتعمل الصالحات ، وحينما يدعى البعض
أن تعذب تلك النفوس أدياً على ذنوب مؤقتة ارتكبتها في الزمن
المحدود هو أمر ظالم .

حينئذ يجيب ربنا متحدثاً عن هؤلاء المجرمين قائلًا :

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكانذبون » .

٢٨ - الأنعام

وفي هذا الرد البليغ إشارة إلى أن أجرام تلك الأنفس لم
يكن ذنباً موقوتاً في الزمن . . . بل إنهم ليعادون هذا الجرم

في كل زمن ومهما عاود الله خلقهم . . لأن ذلك الأجرام حقيقة
مكتونة وليس عرضاً محدوداً بالزمان والمكان . . ولهذا كان عقابه
الأبد وليس العذاب الموقوت .

ونقول أيضاً أن هناك عدالة عميقة كامنة في هذا المصير . .
باراً أبدية أم جنة . . إن كل نفس بينها وبين ذلك المصير النهائي
مشاكمة تامة ومضاهاة وإتلاف في الحقائق . . فالحقائق النارية
تسكن النار والحقائق النورية تسكن الجنة . . فلا قسوة هناك
ولا وحشية ، إنما وضع لكل شيء في مكانه .

والسر الآخر الذي يكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع
من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنساناً مجرمًا ولا العكس
وأن الكلام على أن معالم المجتمع جعلت فلاناً لصاً ، هذا الكلام
لا يصدق دينياً ولا واقعياً . . فالمجتمع يضع للجرمة إطارها فقط
ولكن لا ينشئ جرمية في إنسان غير مجرم . . بمعنى أن لص هذا
الزمان تعطيه إمكانيات العصر العلمية وسائل إلكترونية وأشعة ليزر
يفتح بها الخرائط ، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد
إلا طفاشة . . كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة
بتسكوب (كما فعل قاتل كينيدي) بينما هو في أيام قريش
لا يجد إلا سيفاً ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصاً ، ثم
قبل ذلك على أيام قابيل وهابيل لا يجد إلا الحجارة .

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجرمة شكلها ولكنها
لا تنشئ مجرمًا من عدم ولا تصنع إنساناً صالحاً من نفس لا صلاح
فيها .

وبالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق
فيخلقوا من ابنهما المجرم ابناً صالحاً ولا العكس .

ونجد في سورة الكهف حكاية عن علام مجرم كافراً ، أبواه
مؤمنان .

« وأما العلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً
وكفراً » . ٨٠ - الكهف

وأكثر الأنبياء كانوا من آباء كفرة واستجابت أكثر الأقوام
لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء .

من الذي يستطيع أن يقلب حقائق الأفسس ويغيرها . لا أحد
سوى الله وحده .

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفس ذاتها أن تتغير
وابتهلت من أجل ذلك ، لأنه واثقنا جميعاً على الحرية التامة وعن
أنه لا إكراه في الدين . . وأن من شاء أن يكفر فليكفر ومن شاء

أن يؤمن فليؤمن . . وأنه لن يقهر نفساً على غير هواها . . وأنه
لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغير وطلبت التغير .
« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وتلك هي التزكية .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً
ولكن الله يزكي من يشاء » .

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها .

« قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

« ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه » .

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيته إلا بإتقان العبادة والتزام
الطاعات وإصالة السجود وفعل الصالحات .

وبحكم رتبة العبودية يصح الإنسان مستحقاً للمدد من ربه
فيملئه الله بنوره ويهيء له أسباب الخروج من ظلمته .

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بالتخلية (تخلية النفس
من الصفات المذمومة) والتحية (تحية عسى بالذكر والمضائق)
والتعلق والتعلق والتحقيق .

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التعلق بما سواه .

والتعلق هو محاولة التحلي بأسمائه الحسنى ، الرحيم والكريم
والودود والرعوف والحليم والصور والشكور . . قولاً وفعلًا .

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللفظ
والمشاكلة ، فتصيح ربانياً في طباعك أو تكاد .

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل
الصالح والتزام المنهج القرآني والسلوك على قدم محمد العبد الكامل
والعارف الكامل عليه صلوات الله سلامه .

والذي يعلق على هذا الكلام فيقول :

قولك عن النفس أنها « السر » هو كلام أغمضت فيه وأغزت
وحجبت وما كشفت .

أقول له إن نفساً فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج
صعوداً وهبوطاً وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية
أو جمادية .

نفس بهذه الإمكانيات هي « السر الأعظم » ذاته .

ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم ؟ ! !

إن هي إلا أصابع تشير .

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله .

ونحن جميعاً لا نعلم .

أسلوب خطبة الجمعة

في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين . . والأقمار الصناعية
تدور في الفضاء ، والصواريخ تنطلق إلى الشمس ، والصور
تنتقل بالسر ، وأحجار تطير بالتركس ، والأعمى يتحسس طريقه
بعض الكهروني ، وموصه تشق ضمة لأعمق عمق دري . .
وسط هذا القمر المائل من الوسائل العلمية والتحديات التي تهر
العقل ، نرى شيخ الجامع يحطب الناس من على منبر القرون
الحوالي وكل ذخيره في الدعوة إلى الإسلام هي تهديد المؤمنين
البسطاء الذين سعوا إليه بأد مصيرهم خرق في جهنم ، وبأن من
يلبس من زوجاتهم نصف كم سوف تشوي أدرعهم في النار .
ومن يتأخر في صلاته ليؤديها قضاء سوف يبقى به في برميل من
الزفت المغلي ، ومن يدخر تقوده في سلك سوف يرشق بالأسياخ

« هل هل يستوى مدبر يعبدون ومدبر لا يعبدون » .

« شهد الله لا اله الا هو و ملائكة و رسله »

وتتكرر كلمة لهم ومشتدته في عدد ثمانية وخمسين مرة .

هذا هو الإسلام . . وهذه دعوته . . وليست براميل الزفت

و تقطر ولا شوى في حية

وحينما كنا نفهمه على حقيقته خرج منا العلماء العظام أمثال

ابن سينا في الطب ، وابن رشد في الفلسفة ، وابن الهيثم في

الرياضيات ، وجابر بن حيان في الكيمياء . وابن النفيس في التشريح

.. وكان للإسلام نصيبه من كل فن

و للإسلام لا يحصى محرمات من يدعو إليه

وهو يحرم على مدعيه محرمات الإسلام أن ترسب على

واحد واحد وانعم . وليس بالشتم على المذاهب والتحديات الجديدة ،

أمثال مكر مدعي وتفكر شيوعي فديته هو الدين الواحد

مدعي حسب للمؤمن بعض صريح أن بعض على قدر حقيقته

ويأخذ على قدر حاجته .

« لا يكف الله عني ولا ماله »

« يسألونك ماذا يتفقون قل العفو » .

و لعل هو مدبر مدبر عن مدبره

وهو مدبر مدبر مدبر مدبر أن لا يصح أن تكون

دولة بين الأغنياء وحكراً لصقة يستمتعون بثمارها ، وإنما يجب

أن تفيض ثمارها على الكل .

وكما كان في تشريعه لاقتصادى أكثر تفوقاً وإنسانية من

المذاهب المادية ، لأنه استمد سلطانه من ضمير المؤمن وليس

من قهر السلطة وإكراه القوى البوليسية ، وجاءت نصوصه

الصريحة تؤكد على عدم تأليه الحاكم .

« ذكر ما أتت مدكر دست عليهم مسيطر »

ما أتت عليه نحر »

لا يتحد بعض بعضاً رداً من دواب الله »

« ما مؤمنون حوة »

وحسن من حرية الفرد وكرامته وأمد قيمة تعدد في ورثها

ورث الإنسانية كلها فقتل نفس واحدة بريئة هي في القرآن

مثل قتل نفس جميعاً لا يرد لها مصارع تقدم ولا ينحدرات تعجز

ولا يحارى تعمر .

« من قتل نفساً بغير نفس أو هاد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » .

وجاء ضد كل عصرية .

وكن صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي هم الإخوة الأول في الإسلام ، وقد تعلموا من القرآن أن الله خلقهم جميعاً من نفس واحدة .

« اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لأنمايز إلا على أساس التقوى والحق ، فالكل أبناء أب واحد .

والاجتهاد في فهم القرآن على ضوء المعارف الحديثة أمر واجب في الدعوة العصرية ، فالقرآن موسوعة وليس كما زعم البعض كتاب عقيدة وأخلاق وتشريع فقط . . . والقرآن تعرض للفلك والكونيات والطب وعلم الأجنة ونشأة الخليقة والسياسة وعلم النفس بآيات ونصوص صريحة محددة تحتاج إلى اجتهد رجل العلم ولا علاقة لها بأخلاقيات ولا بتشريع .

حنكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث . . .

ما هو ذلك الخلق المتابع . . وما هي الظلمات الثلاث ؟

هذه أمور لا يستطيع أن يفهم فيها إلا علم أحنه .

وبالمثل ماجاء عن السماوات السبع . . وعن أسماء ذات الحبل (أي ذات الممرات) . . وعن دحو الأرض . . . « والأرض بعد ذلك دحاها » والدحو في القاموس يعني التبسط ويعني التكوير معاً . . . وعن الليل « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

وعن زوجية الأشياء .

« من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تدكرون » إشارة إلى سالب وموجب . . ومادة ومادة مضادة . . وإلى الاستفصاء في فهم القرآن . . وإلى الجزئي والعملي واليساري الذي عرفناه في الكيمياء . . إلى آخر ما يمكن لنا العوم الحديثة عن روحية الأشياء .

وعن مبدأ الخلق .

« جعلنا من الماء كل شيء حي » .

« خلق كل دابة من ماء » .

« ولقد حققنا الإنسان من سلالة من طين » .

وعن نشأة جنس الجنين من النطفة الملوثة

« وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » .

لم يقل من نطفة الأنثى بل من نطفة الرجل . وهذه حقيقة علمية .

وعن الهجوم والكواكب في السماء .

« كل في فلك يسبحون » .

« كل يجري لأمر مسمى » .

لا يوجد جرم فلكي في حالة سكون وإنما الكل يتحرك . .

.. والكل يجري لأجل . . وله ميلاد وموت كما أن للإنسان ميلاداً

وموتاً . . وهذه كتبها علوم ومعارف علمية على وجه التحديد

ولا علاقة لها بوصايا خلقية أو تشريعات أزلية ومفتاحها في اجتهاد

الميكروسكوب والتلسكوب وكيمياء الجزيء والذرة وعلوم الحياة

وبحث العقل في أرجاء الكون .

وهذا الاجتهاد العصري مطلوب ولا خوف على القرآن من

اختلاف التفسير فهناك أكثر من ألف تفسير مختلف ولم يضر هذا

الاختلاف القرآن شيئاً وإنما كشف لنا عن خصوصته .

هذه الفحوة المصطنعة المبتعدة بين الدين ولعم لا وجود لها

في الإسلام فالإسلام دين علم لا يزدهر بالعلم والجدل ، ويزداد

تضارة بهجوم العقل عليه ، لأنه حق ولا خوف على الحق من

حرارة المخترئين .

وهذا الانقسام المرضي في العقيدة الشرقية بين معارف العلم

ومعارف الدين هو انقسام مفتعل روج له الاستعمار لعزل البلاد

المتخلفة عن روح العصر ، ويعزل الدين ويحيطه في داخل لكتب

الصفراء ليسهل بعد ذلك طعنه والقضاء عليه كشيء قديم متحني

مهلهل عنى عليه الزمن .

ونأتي بعد ذلك إلى أهم جانب في الدعوة العصرية وهو القدرة

على مخاطبة الشباب بأسلوبه وأدواته .

إن الشباب يذهب إلى السينما والمسرح ، ويجلس أمام الراديو

والتليفزيون ، ويستمع إلى الأغنية . . والدعوة العصرية يجب

أن تدخل إليه من كل تلك القنوات

على الدعاة أن يختاروا لدعوتهم القوالب العصرية الحديثة ،

فيضعوا أهدافهم في أشكال فنية ومسرحية ومسلسلات

تليفزيونية وبرامج ترفيهية .

وعلى الدعوة العصرية أن تتجنب الديباجات الكلاسيكية القديمة
والعبارات المكررة المحفوظة ، وأن تستخدم العبارة البسيطة
المختصرة وبانظرة الموضوعية والأسلوب العلمى الذى يقع العقل ..
وأن تعتمد على الاستدلالات الحسية البليغة من واقع الحياة .

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بغوضة » .

فماذا يستحي رجل الدين من استخدام السينما والتلفزيون
والمرسح وقصة الحب ليقدم مفاهيمه . ولماذا يختار أمثله وشواهد
من عصر عثمان بن عفان ومعاوية وهو يعيش فى أكثر العصور
خصوبة واثراء . . . ولماذا يقتصر على منبر الجامع فى عصر تعددت
فيه المنابر الإعلامية ، وأصبح فيه التلفزيون أخطر هذه المنابر
جميعاً . فساداً لترك هذا المنبر لأعدائنا يروحون فيه للإلحاد والانحلال
ونسجن أنفسنا داخل قوقعة المسجد .

وعلى الدعوة العصرية أن يدموا إلهاً تاماً بجميع الفلسفات
الغربية ولشرقية لإحادية ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية
الحديثة ، وبوجوه قوتها وضعفها ، وبأساليب الرد عليها
بالعلم والرأى الموضوعى ، وليس بالسباب والشتم أو الدعاوى
الإيمانية .

إن أسلوب خطبة الجمعة التقليدى لم يعد يخدم فى الدعوة فى

عصر تيسرت فيه السبل والأدوات ، وتعددت المغريات التى
تساقى رجل الدين إلى قلوب الشباب . . وأعداء الدين أصبحوا
حيثناً بأسنان ذرية وعقول ألكترونية . . وعلينا أن نحاربهم بأسلحتهم
. . . وعلينا قبل كل شئ أن نتعلم السباحة فى مياههم ولا نسجن الدين
فى درقة سلحفائية تنادى من على منبر مهجور وفى يدها سيف
خشبي .

بل إن خطبة الجمعة ذاتها عليها أن تزود بكل ما قلناه من
علوم العصر وحيله وأساليبه لتستطيع أن تناقشه وتقوده . . وبمثل
ما يتكلم خطيب الجامع من ميكرفون . . عليه بالمثل أن يتكلم
مستخدماً كل ما يهبه العصر من معارف وعموم ودهاء .

إسرائيل تحرف الأناجيل

مصادفاً على كلامنا الذي قلناه عن التوراة طالعنا لأخبار
أخيراً بأن اليهود الذين أدمنوا تحريف الكتب المقدسة أصدروا طبعة
جديدة من الإنجيل حرقوا فيها وبدلوا وغيروا على هواهم الكثير
من الآيات .

وبلغ عدد التحريفات في أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا
٣٥١ تحريفاً . . أما في سفر أعمال الرسل فبلغت جملة التحريفات
١٦٥ تحريفاً وفي الرسائل الأخرى — (الرسالة إلى أهل رومية
٦٢ تحريفاً . . والرسالة إلى أهل كورنثوس ١٧ تحريفاً . . والرسالة
إلى أهل غلاطية ١٢ تحريفاً) .

وتهدف جميع هذه التحريفات إلى تبرئة اليهود من دم المسيح . .

في إنجيل متى على سبيل المثال في النسخة الأصلية نقرأ عن
عن المؤامرة على المسيح :

« حيثئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار
رئيس الكهنة الذي يدعى قيافا وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر
ويقتلوه » ٢٦ : ٣ - ٤

وفي النسخة المزورة تشطب كلمة « ويقتلوه » وتحرف إلى
كلمة « وينفوه » فتصبح العبارة هكذا :

« وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر وينفوه » .

وفي مكان آخر نجد في النسخة الأصلية :

« وفيما هو المسيح يتكلم إذا يهوذا أحد الإثني عشر قد جاء
ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ
الشعب وبنى أسدمه أعصم علامة قتلا الذي نفسه هو هو أمسكوه
حيثئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه » ٢٦ : ٤٧ -
٤٨ - ٥٠ .

« وفي النسخة المزورة يشطون » رؤساء الكهنة وشيوخ
لشعب » وهم اليهود بالطمع ويضعون بلطم كلمة « رعاع كثير » .
فتقرأ النص هكذا :

« وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الإثني عشر قد جاء ومعه
رعاع كثير بسيوف وعصى ، والذي أسلمه أعطاهم علامة قتلا
الذي أقله هو هو أمسكوه » .

في الإصحاح ٢٧ : ١ متى النسخة الأصلية نقرأ :

« ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب
على يسوع حتى يقتلوه » .

وفي النسخة المزورة تبدل كلمة « يقتلوه » إلى كلمة « يدينوه » :

« تشاور جميع الكهنة والمنشروعون على يسوع لكي يدينوه » .

وفي حادث الصلب نقرأ تبديلا خطيرا ، فاليهود في النص
الأصلي يصرون على صلب المسيح ويقولون . . دمه علينا وعلى
أولادنا :

« فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا » ٢٧ :
٢٣ - ٢٦ .

أما في الطبعة المزورة فنقرأ :

« فأجاب الرعاع وقالوا دمه عليه » .

أي على رأس المسيح نفسه . . وبذلك يبرهون أنفسهم
وأولادهم من دمه . . ويتقون بالدم على رأس الصحبة .

وللأهمية تقدم النصين باللغة الإنجليزية :

Then answered all the people and said his blood
be on us and on our children

وفي النص المحرف :

Then answered the rabble and said his Blood be
upon him

وفي إنجيل مرقس تتكرر نفس المحاولات بنفس الهدف :

« هانحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء
الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت » ١٠ : ٣٢ - ٣٣

فيشطبون كلمة الموت ويبدلون بها هكذا :

« هانحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى الكهنة
والكتبة فيدينونه » .

وفي مكان آخر :

« وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين وكان رؤساء الكهنة
يطسون كيف يمسخونه بمكر ويقتلونه » ١٤ : ١ .

نقرأها في النسخة الإسرائيلية :

« وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يمسخونه بمكر ويقتلونه »
« يبدلون كلمة لقتل بالني » .

وعن الصلب نقرأ في النسخة الأصلية :

فصرخوا أيضاً أصله .

فقال لهم بيلاطس : وأى شر عمل .

فازدادوا جداً صراخاً أصله ١٥ : ٩ - ١٤

وفي النسخة المزورة يشطبون كلمة الصلب ويستبدلون بها
هكذا :

فصرخوا أيضاً أبعد عنا .

فقال لهم بيلاطس : وأى شر عمل .

فازدادوا جداً صراخاً أبعد عنا .

وفي إنجيل لوقا يحرفون كلمة « يقتلونه » إلى كلمة « يضايقونه »

في النسخة الأصلية :

« وقرب عيد الفطير الذي يقال له الفصح وكان رؤساء الكهنة
والكتبة يطلبون كيف يقتلونه » ١٤ : ١ .

وفي النسخة الإسرائيلية :

« وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يضايقونه » .

وعن الصلب نقرأ في النسخة الأصلية :

« فداداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا
قائلين أصبه أصله » ٢٣ : ٢٠ - ٢١

وفي النسخة الإسرائيلية :

« فداداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا
قائلين أبعد عنا أبعد عنا » .

وفي إنجيل يوحنا :

« فن أجل هذا كن اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه »
١٨ - ١٦ : ٥

نقرأها محرقة هكذا :

فن أجل هذا كن أهل اليهودية يطلبون أكثر أن يضابقوه .

وفي مكان آخر :

« أليس موسى قد أعطاكم التاموس وليس أحد منكم يعمل
التاموس ، لماذا تطلبون أن تقتلوني » ٧ : ١٩ نقرأها في النسخة
الإسرائيلية :

« أليس موسى قد أعطاكم الكتاب المقدس وليس أحد منكم
يعمل الكتاب المقدس ، لماذا تطلبون أن تصابقوني » .

وعن الصلب تراهم يلصقون تهمة صلب المسيح في الرومان
بينما هي صريحة على اليهود . في النسخة الأصلية :

« فحينئذ أسلمه إليهم (إلى اليهود) ليصلب . فأخذوا يسوع
ومضوا به » .

نقرأها في النسخة الإسرائيلية :

« فحينئذ أسلمه إلى الرومان ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا
به » .

ونقرأها هكذا في الإنجيلية :

Then delivered he him therefore unto them to be
crucified

وفي النسخة الإسرائيلية :

Then delivered he him therefore unto Romans
to be crucified.

وفي سفر أعمال الرسل :

نقرأ في النسخة المعتمدة :

« وقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال : أيها
الرجال اليهود .. أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال ..

يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب
وآيات صنعها الله بيده في وسطكم .

هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحترمة وعلمه السابق وبأيدي
آثمة صلبتموه وقتلتموه « ٢ : ١٤ - ٢٢

وفي النسخة الإسرائيلية نقرأ الختام هكذا :

« هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحترمة وعلمه السابق وقد
صلبته أيدي الرومان وقتلته »

Ye have taken and the Roman hand have crucified
and slain him.

إلى هذه الدرجة من الجرأة والفجور يبدلون كلمات لا يصح
أن تبدل ويحرفونها عن مواضعها . ومتى يحدث هذا . . اليوم . وفي
هذا العصر . . ونحت سمع الكيسة وبصرها ونحت سمع العالم
وبصره .

والطبعة المزورة صدرت عام ١٩٧٠ بالقدس عن دار النشر
اليهودية .

وقد ارتكوا هذه الجريمة اعتماداً على وثيقة التبرئة التي
أصدرها المجمع المسكوني والتي برأت اليهود من دم المسيح . .
وأصدرها البابا بولس السادس في أكتوبر ١٩٦٥ وقال فيها :

« إن ما ارتكب ضد المسيح لا يمكن أن يعزى دون تمييز
إلى جميع اليهود الذين كانوا عاثشين إذا ذاك ولا إلى يهود أيامنا » .

علماً بأن التوراة صريحة بأن ذنوب الآباء يكفر عنها الآباء .
وفي سفر الخروج ٢٠ : ١٥ :

« أنا الرب إلهك إله غيور أعتقد ذنوب الآباء في الآباء » .

وكانت نتيجة هذا التساهل والتسامح الذي وقعت فيه الكنيسة
أن امتدت أيدي اليهود إلى الإنجيل لتعثر فيه بالتبديل والتحريف
علناً وبلا حياء .

ومن قبل كتبنا عما فعلوا بالتوراة وما حرفوا في سيرة الأنبياء
الأبرار وكيف ألصقوا بهم السرقة والدعارة والشذوذ حقناً وتهديماً
وتخريباً .

وما يفعلونه « اليوم أماننا من تحريف الإنجيل وتزويره وتبديله
في علانية فاجرة هو شاهد على ما فعلوه بالأمس ، وهو مصدق على
جرائمهم .

ومع ذلك نرى أمريكا المسيحية تؤيدهم وتساندهم بأمال
والسلح .

وتسكت الكيسة الغربية عن جرائمهم .

وما يحدث أكبر من مجرد تحريف كتاب مقدس .

ولنما التاريخ يزور عناية .

ولقد وصفهم القرآن صادقاً حينما قال إنهم « يكون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » .

وإنهم « يحرفون الكلم عن مواضعه » .

وإنهم « افتروا على الله الكذب » .

وأأذرهم بمصيرهم قائلاً :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .
أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » .

ونحن ننتظر من كنيسةنا الشرقية وعلى رأسها رجل بار
مستنير هو الأب شنودة أن يقوم بالاحتجاج والتجريم لهذه الأعمال
على مستوى العالم ، وأن تستنهض الكنيسة الغربية إلى عمل موحد
بمضج هذا التدليس التاريخي الذي لا يرضى به ضمير .

العلوم الذرية والإسلام

من ألوف السنين . . . ومن قبل أن يمتلك الإنسان معامل
للطبيعة والكيمياء ، ومن قبل أن تتاج له فرصة التحليل المعمل
للمادة . . . كان مشغولاً باكتشاف سر المادة وتكوينها ، وكان
يحاول أن يفض أعاذها وأسرارها بعقله المجرد بالنظر والتأمل ،
بينما كان أهل الشطح من الصوفية يحاولون الوصول بالإلهام .

وإنه لأمر عجيب ومدهش أن نعثر في مخطوطة للصوفي المسم
حلال الدين الرومي منذ حوالي الألف سنة عبارة يقول فيها :

لو فلتت الدرة لوحدت في داحلها نظاماً شمسياً .

ونجد نفس العبارة لعريد الدين العطار من تسعمائة سنة :

السرة فيها الشمس . . وإن شققت ذرة وجدت فيها عالماً
وكل ذرات العالم في عمل لا تعطيل فيه .

وكذلك نجد رهبان البوذية يرددون في تعاليمهم منذ أربعة
آلاف سنة أن المادة تنقسم لأصغر جزء فيها . . وذلك الجزء الأصغر
هو وحدة قائمة بذاتها ، وتحتوى تلك الوحدة على نظام من
الداهرمات ، يتراوح عددها من ٨ إلى ١٢ داهرمات . . وهذه
الداهرمات تولد لتفنى سريعاً ويبقى تأثير الواحد لفترة قصيرة ثم
يعقبه غيره .

وهذه الأقوال العجيبة تطابق أحدث ما كشفه العلماء الآن عن
المادة والذرة باستخدام أحدث المختبرات وأحدث وسائل البحث
والاستقراء .

كيف وصل هؤلاء الأساس إليهم إلى قلب الحقيقة هكذا
دفعه واحدة . . وبدون مقدمات . . وبدون وسائل . . وبدون
مختبرات .

بل إننا لنرى القرآن يشير إلى اسرة من ألف وأربعمائة سنة
على أن لها مثقال . . ويقرر أن هناك ما هو أصغر من الذرة ،
مؤكد أن ذلك أنها كتلة قاسية للقسم .

وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .
(يونس - ٦١)

وفي سورة سبأ تتكرر الإشارة بنفس الكلمات :

ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . (سبأ - ٣)

وقديماً قال فلاسفة المعتزلة المسلمون بأن المادة تتجزأ حتى
تصير إلى جزء لا يقبل التجزئة أو القسمة هو ما أسموه : باجوهر
الفرد ، أو الذرة في قاموسنا ، ووافقوا في ذلك ما ذهب إليه فلاسفة
الإغريق .

وأنكر فلاسفة مسلمون هذا المذهب ، فقال إبراهيم النخعي :

لا جزء إلا وله جزء ولا بعض إلا وله بعض ولا نصف
إلا وله نصف ، وإن الجزء يجوز تجزئته أبداً .

كما أنكر الفارابي وابن الهيثم وابن سينا والكندي هذا المذهب
وقالوا بأن الجوهر الفرد أو الذرة تقبل التجزئة لما هو أصغر منها .

والذرة في العلم الحديث بناء ونظام أشبه بالنظام الشمسي
في أنها تتألف من نواة كبيرة نسبياً يدور حولها إلكترونات بالغة

لتصغر في أفلاك متعددة وبين الاثنين فضاء وخلاء هائل . .
ويستحيل تقدير مكان الإلكترون في لحظة معينة إلا على وجه
الاحتمال . . وهو من فرط سرعته أشبه بسحابة تغلف النواة .

والإلكترون سالب الشحنة . . وهو يستطيع أن يقفز من
مداره إلى مدار داخلي أقرب إلى النواة أو إلى مدار خارجي مبتعداً
عنها ، وهو بهذه الحركات يأخذ أو يعطي شحنة كهربائية
مقدارها فوتون واحد . . وتتوقف شحنة الفوتون على المدار . .
والفوتون هو الوحدة العلمية لطاقة الضوء .

ويستطيع الإلكترون أن يقفز سبع قفزات عبر سبع أفلاك
عبر سبع مستويات من الطاقة أو سبع سموات خارجاً من الذرة ،
وهو في أثناء ذلك يعطي السبع فوتونات التي تؤلف الضوء الشمسي .

والنواة موجبة الشحنة . . والذرة بجمعها بين النواة الموجبة
والإلكترونات السالبة الشحنة . . تعتبر متعادلة . . ولكن إذا انطلق
الإلكترون هارباً من ذرته فإن شحنة الذرة الموجبة تترجح
وتتحول بذلك إلى أيون موجب .

والحرارة الشديدة في باطن الشمس تستطيع أن تقشر
الإلكترونات عن ذراتها فتحولها إلى أيونات موجبة ، وتستطيع

كثير من ذلك أن تصك النواة إلى محتوياتها ، ولذلك تنفرد الذرات
بإصدار أولئك

والأيلروجين يتحول في باطن الشمس بهذه الطريقة إلى
هيدروجين ، ثم بعد توليف وتركيب هذه البلازما بالحرارة أيضاً
بذرات حديدية ثقيلة من الهيليوم مع إطلاق طاقة تناطر ملايين
والملايين القتال الأيلروجين

وهذه الطاقة هي التي تأتيها من الشمس على شكل ضوء
وحرارة وإشعاعات متنوعة منها الصادر والقاتل (مثل الأشعة فوق
البنفسجية والأشعة الكونية وأشعة إكس) .

والأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية القادمة إلينا من
الشمس حينما تصل إلى الطبقات العليا من الجو ، تصرب ذرات
الأكسجين وتقشر إلكتروناتها وتحولها إلى طبقة الأيونوسفير
المكهربة .

وهذه الطبقة المكهربة تمتص بذلك هذه الأشعة القاتلة وتحميها
منها مثل سقف أو قبة أو مظلة مضروبة فوقنا لحمايتنا . . وفي ذلك
يقول القرآن في كلماته الملهمة :

« وجعلنا السماء سقناً محفوظاً » .

والأرض تقذف باستمرار وفي كل لحظة ببيالات وزوابع
ويحب من الألكترونات والإشعاعات ومتاقبت الذرات قادمة من
الشمس ، وتوزع هذه المخلفات الذرية حول الأرض حسب
خطوط المجال المغنطيسي . . وتتجمع في أنوار ملونة فسفورية
عند القطبين .

وهذه القذائف هي التي تتحكم في الطقس والمناخ ، وهي
التي تسبب الأعاصير والرياح ، كما أنها إذا زادت (أثناء فترات
الكشف الشمسي) ، تسبب ازدياد حالات الجنون والانشجار وتعجل
بأشورات وأحروب وتأثيرها في . . .

وحديثاً كشف العلم أن نواة الذرة تتألف من محتويات هي
لأخرى وأنها قابلة للقسمة . . وحدد العلماء ما بين ٨ إلى ١٢ جسيماً
(كما قال أصحابنا البوذيون ولا ندرى كيف عرفوا) داخلة في
تكوين النواة . . منها البروتون الموجب الشحنة والنيوترون المتعادل
والهيسرون والميزون والنيوترينو والانتق نيوترينو والبوزيترون . .
وغيرها وغيرها .

وهذه الجسيمات عمرها قصير جداً ، وهي تولد وتفتنى وتتحول
الواحد إلى الآخر باستمرار كما قال رهبان البوذية . كما أن لها
طبيعة مزدوجة ، فهي تتصرف كجسيمات ، كما أنها تتصرف
كموجات ، ويبدو أنها هي الحالة الوسطى بين المادة والطاقة .

والكوارث التي نزلت بقوم عاد وثمود والتي قصدها القرآن
يمكن أن تكون كوارث من نوع الانفجارات الذرية . . فهي
تدعى معصية صبيحة .

« إنا أرسلنا عليهم صبيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » .
(القمر - ٣١)

« فقدم عليهم ربهم بذنبهم فسوها » (الشمس - ١٤)

هذه الذممة . . أو الصبيحة واحدة . . التي تشبه ما نطلق عليه
بالموجة فوق الصوتية ، وهي إذا كانت عالية جداً جداً فلإنها يمكن
أن تحطم المادة وتفلق الذرة فتحدث انفجاراً ذرياً فورياً .

وتفاصيل هذه الكوارث كما وصفها القرآن تشبه ما حدث
في هيروشيا وناجازاكي . . فهناك زلزال يجعل عالي الأرض
الأرض سافلها ، وهناك حرارة شديدة وإعصار مدمر ، وهناك
ضوء يعمى الأبصار ، والموت يأخذ الناس أخذ الصاعقة .

« فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » .
(فصت - ١٧)

« فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » . (الذاريات - ٤٤)

و لأرض التي تقلب وترفع وتلك تعود فتزول رجوماً وخاصياً
على دعوس الناس كأنظر .

« فلما جاء أمرنا جمعنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
سجيل مصود » . (هود - ٧٧ - ٨١)

« وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين »
(الشعراء - ١٧٣)

ولم تكن هناك طريقة لإنقاذ لوط من مصير قومه إلا أن
يرحل مبتعداً مسيرة نصف يوم ، مما يدل على أن الكارثة هي
كارثة طبيعية لإنقاذها بكرامة أو معجزة . . وإنما لا بد لمن يريد
لإنقاذ أن يهرول مبتعداً .

وجعل الله لحرب لوط ميقاتاً هو الخروج بالليل ، وجعل
للكارثة وقتاً معلوماً هو الصبح ، حتى يكون لوط قد قطع مسافة
أمان كافية لخروج من قطر الزلزال .

وعلى اهاريين ألا ينظروا خلفهم . . لأن وهج الانفجار
سوف يعنى بصر من ينظر إليه كما تقول بذلك سورة هود .

ونقرأ نفس لكلام في سورة الحجر :

« أسر بأهلك بقطع من الليل وانبع أدبارهم ولا يلتفت
مككم أحد وامنضوا حيث تؤمرون » (الحجر - ٦٥)

ومسكت من ذلك دلت التضاعلات والمخلفات الملورية التي
حدثت في قرية هيروشيا على أن هذه التربة قد تحولت بعد ضربها
بمسكة الليرة إلى بقايا أشبه بما كان في سدوم وعمورة ، في
سطح حث عاش قوم لوط .

حول ذلك الموضوع الطريف وحول هذه الحقائق وغيرها
أحدثنا مفكر إسلامي جديد هو المهندس أحمد عبد الوهاب في جولة
تمتعه في كتابه الجديد الذي صدر هذه الأيام بعنوان « أساسيات
هود - سره - خديته في سرث إسلامي »

وهو كتاب يستحق القراءة .

الإسلام والطب

حيوانات تستطيع أن تباشر عملية التوليد بالغريزة ، وهي
تعرف كيف تقطع الحبل السرى ، وأين ومتى تقطعه عن الجنين ،

• ، حادة تستطيع أن تميز البيضة المندودة من البيضة التي
ترقد سدى فتسده وتبقى بها بعيداً . وتستطيع أن تميز بيضة
غير مسحة من البيضة الملقحة . ، وهي تقوم بإطعام غزيرى
بشئيب سيقن الذى ترقد عليه كل عدد معلوم من الساعات .
وولدها بشئيب ماتت لأجنة سبب انصافها بالفشرة ؟

وخرج . . . يعرف أن أصعب مكان فى بيضة ينقره
منقره ويخرج

والتحل يعرف كيف يبنى بيوته السداسية بدون مسطرة

و يدون برجل . . . والتحلات الشعالة العائدة من الحقل تقوم بعمل
خريطة طبوغرافية دقيقة بمكان الزهور ، وذلك عن طريق الرقص
وعن إشارات بحركات بطنها تدل باقى الشعلة على حمرية المك
بدقة لا تخيب .

وأعجب من ذلك كله هو ذلك الطب العريزى الذى يمارسه
حيوان « الوارا » حينما يلدغه ثعبان ، فإنه يلجأ إلى نوع من العشب
الصحراوى يسميه الدور « الرمام » ويحك فيه جرحه . وقد لوحظ
أن هذا الحيوان لا يدخل فى معركة مع الثعبان إلا إذا كان على
مقربة من هذا العشب ، فإذا لم يجد هذا العشب فإنه لا يدخل فى
مواجهة مع الثعبان ويبادر بالهرب . . وقد أثبت التجارب أن هذا
العشب يشى بالفعل من لدغة الثعبان ، والامم العلمى لهذا العشب
هو *Htliotropium ramosissimum* ومفعوله العلاجى راجع
إلى تأثيره على الجهاز المدعى فى الكبد .

وهذه حقائق علمية لم تعرف إلا أخيراً . . فكيف أدرك
حيوان « الوارا » هذه الحقائق ، ومن أين علم بها . .

ذلك هو إلهام مسرور غيب لاخى بلا شك .

وهو مح وحى به الله لحيوان مصداق الآية .

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن

شعرا وحي يعرشون » وهذا مما حدا بالمسلمين الأوائل إلى الاهتمام
بالعشب .

وخرج من العرب عشاقون عظام أمثال داود الأطاكي وابن
سطار وكوهين العطار وعمار الموصلى .

وقد جاء الوقت الذى نعمل فيه على إحياء تراثنا الطبى العربى
لقد قدمت الصين من تراثها الطبى الشعبى أسطورة الإبر الذهبية
والذى نستطيع إذا عكسنا على تراثنا الطبى الإسلامى أن نقدم الكثير .

لقد ظلت أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف
إلا الأقرباذين العربى ، ولا تعتمد فى طبها إلا على مخطوطات
ابن سينا والراوى والزهرراوى وابن التيمس .

وما زالت أوروبا تسمى بعض المركبات الكيماوية بأسمائها
العربية . . فالطرطير هو الـ TARTAR والبورق هو BORIC
والكحول هو ALCOHOL والشراب هو SIRUP

وكانت حصرة للإسلامة هى جامعة فى أحدث عنها
أوروبا بحسبة فى عصورها وسعى بصمة

وقد حاول بعض المستشرقين أن يطمس هذا التاريخ ، فقال

إن العرب كانوا مجرد نقليين ومترجمين عن جالينوس وأبو قراط ،
وأن الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس ومصر ،
وليس فيه جهد إبداعي — وهو افتراء تكذبه مخطوطات الرازي
وما جاء فيها من تصويبات كثيرة لأبو قراط وجالينوس .

فترى الرازي يخطئ أبو قراط في قوله بأن ماء الاستسقاء
ascitis يصل إلى الرئة ويسبب السعال ، ويصف هذا الرأي
بأنه سمع . . كما يخطئه في أن هزال الجسم يزيد من رواسب
البول ويقول . . هذا رأي خطأ لا يجوز .

كما نرى ابن النفيس يخطئ جالينوس في زعمه بأن هناك
ثقلاً بين البطين الأيمن والبطين الأيسر في القلب وأنها متصلان
ويقول إنه لا اتصال بين البطين الأيمن والأيسر وإن دم البطين
الأيمن والأيسر لا يمتزجان إلا في الحالات المرضية .

كما نرى البغدادي يصحح ما زعمه جالينوس من أن الفك
الأسفل عظمتان ويقول بل هما عظمة واحدة .

ومعلوم أن ابن النفيس كان أول من اكتشف الدورة الدموية
الرئوية الصغرى .

وقد اكتشفها الراهب الإسباني سرفيتوس بعده بثلاثمائة سنة

وشر وصفه في محله دسيسة . وفي بلع هذه الحلة حون
كثيرة في سوسه . ستعدة في حبيب وحكمه وانهمه بالندقة
وحكمه عند حرق

هذه كاتر نعيم مع عيشهم . وهذا كاتر قريح

في ياب نوري . . . من كاتر بلا حبيب تحدث بسيرة
بالسلامة فيهم

إن تصحيح هذه الأوهام أمر ضروري .

.. فأسوأ ما تصاب به أمة أن تكون بلا ذاكرة .

وما أكثر ما استحدث هؤلاء الرواد لقدمات في صناعة الطب .

كان الزهراوي أول من عالج حصوة المثانة بالتفتيت . .

وكانت له محاولات متطورة في علاج البواسير والناصور
والأورام السرطانية والفتق .

وكان الرازي أول من تكلم عن التشخيص المقارن differential
diagnosis حينما تختلط الأمراض وتنشبه علاماتها . . وقد
وصف الجهاز الهضمي بدقة كما وصف تشريح المعدة وطبقات
العضلات المختلفة فيها تماماً ، كما نصفها اليوم . . وافرغ بين

التزيف المتسبب من القرحة والتزيف المتسبب من يوامير المريء
ووصف أقراص الطبشير للحموضة ، وهو علاج نستعمله الآن . .
وقدم وصفاً دقيقاً للمرضى الكزاز *tetanus* وقال عن وجه
المريض بهذا الساء إنه يبدو كما لو كان يضحك ، وهو مانسميه
لآن *risus sardonicus* وقال إن مريض الكزاز يموت
مختنقاً بسبب تشنج عضلات التنفس وتوقف حركاتها ، وهو
كلام علمي دقيق .

وللرازي رأي جيد في علاج الحروق بالماء البارد ، وتلك آخر
صيحة الآن في علاج الحروق حيث يوضع الذراع أو الساق
المحروقة في الماء البارد لمدة دقيقتين لتقليل الألم وتقليل فقدان
البلازما .

ويقول ابن سينا في خلع الفقرات . . إن كانت الفقرة الأولى
في العنق مات صاحبها في الحال لأن عصب التنفس ينضغط فلا
يفعل فعله ، وإن كانت من الفقرات السفلية لم يمتنع التنفس ولكن
يمتنع التبرز والتبول . . وهذا كلام علمي دقيق .

وقد سبق الزهراوي الجراحين بألف عام إلى اكتشاف جراحة
دوالي الساق بطريقة سل العروق *stripping of veins* وهو
أسلوب لم يعرف إلا منذ ثلاثين عاماً .

وقد عرف العرب التحدير باستعمال البرودة الشديدة والأعشاب
المرقلة ، كالحشيش والسكران والذاتورا والبلادونا .

وعرفوا طب الأسنان ونخبها وحشوها ، وذكر الرازي
سبعة أنواع من المعاجين والمساحيق لعلاج الأسنان وهي لا تخرج
في تركيبها عن المعاجين الحالية من حيث احتوائها على المواد العذرية
و مواد المطهرة والمواد الحاككة والمواد القابضة والمواد المزيلة
للروائح . . كما عرفوا فتح الفرس بالثقب وإمته عصب الفرس
بستخدام الزرنخ .

واشتغلت المرأة العربية بالتدبير والطب من قديم . . وفي
اليوم التي عليه الصلاة والسلام كانت رقيقة الأسمية تتخذ خيمة
في المسجد تداوى فيها الجرحى في الحرب . . وفي أواخر الدولة
لأموية كانت زينب طيبة بنى أود من الماهرات في صناعة الكحانة
، مساواة آلام العين .

وكان العرب أول من استحضروا أحماض الكبريتيك والنيتريك
والماء الملكي وأيدروكسيد الصوديوم والنشادر وتترات الفضة
وكبريت الزئبق وبوريد الزئبق والأنثيمون وكثيراً غيرها .

وكان الرازي أول من جرب أملاح الزئبق على القروء
ليرى مفعولها ، وأول من استخدم الزئبق في المراهم .

وعرف العرب في تحضير الأدوية وسائل التقطير والتبخير
والترشيح والتصفيد والتنويب والطحخ والتلور . . وكان ابن سينا

أول من غلب الحبوب بالذهب والفضة ، وكان الزهراوى أول
من حضر الأقراص بالكبس في قوالب خاصة .

وسبق العرب انعام في ابتكار نظام المستشفيات . . وكانوا
في بيارستان قلاوون يرفعون عن المرضى بالموسيقى وتلاوة
القرآن . . وكانوا يعطون كل مريض منحة مالية عند خروجه حتى
لا يعجل إلى العودة إلى عمله في فترة النقاهة .

ومن أقوال الرازى . . ينبغي للطبيب أن يوهم المريض بالصحة
ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك ، فزاج الجسم تابع لأحلاق
انفس ، وتلك نظرة نفسية عميقة من طبيب قديم .

وكان يقول . . لا تعالج بالدواء إذا استطعت أن تعالج
بالعلاء وحده ولا تعطى دواء مركباً إذا استطعت أن تعالج بدواء
بسيط .

وفى تحرزهم في مسألة الأدوية هذه نرى طبيباً كبيراً من أطبائهم
هو أبو العلاء ابن زهر الأندلسى يقول :

أقسم بالله أنى ماسقيت دواء قط مسهلاً إلا واشتغل بالى قبله
بأيام وبعده بأيام فلنمأهى سموم ، فكيف حال مدبر السم ومسقيه .

وهذه صبيب كبير يتردد في كتابة دواء ملين ويقلق ويشغل
بأله مخافة الإضرار بمريضه .

وأن هذا الطبيب من أطباء اليوم الذين يكتبون المصادات
حرب والكورتيزون دون تحرز وهى سموم قتالة .

إنما هى أخلاقيات المسلم الذى يخاف ربه . .

ومن النظرة الإيمانية أن تبدأ علاج المريض بأقرب الأشياء
ب طبيعته بمحدد تعديل قائمة غذائه . . فإذا لم يصح العلاج
حزب إلى أعشاب من بيئته تقسمها له دون أن تغير طبيعتها ودون
ربقة أو استخلاص أو تجزئة إيماناً بأن الله وصمغ العناصر انشافية
و : دخل هذه العبوة الباتية لحكمة .

وهذه النظرة صحيحة . . ولها شواهد علمية تؤيدها . . ففى
التداوى بالنبات المسمى «بنر جوتونا» واسمه العلمى PLANTAGO
OYATA لوحظ أن استخلاص العنصر الدوائى وهو القشر من
سور وتناوله منفرداً لعلاج القولون يؤدي إلى مضاعفات
حساسية . . ولانظهر هذه المضاعفات في حالة تناول للدور على
حالتها الخام .

وهذا لا يعنى ألا تقوم بالتجارب ودراس ونستخلص . بل
المراد ألا تتدخل إلا للضرورة وأن نطرح باحترام إلى الطبيعة
ومسحتها صيغة يدرب حكيمه لا تحصى ،

وعسل الحبل ونحو هذه الشقائية شاهد على هذا الأمر .

وفي القرآن إشارات إلى مسائل مازالت إلى الآن من قبيل الأسرار ، فحينما يشكو أيوب لربه من مس الشيطان :

« رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب » .

يقول له ربه :

« اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .

الله يصف له ماء البايغ ليشرب ويمتسل ليذهب عن جسمه من هذا المس الضار .

وفي آية أخرى عن الماء يقول القرآن :

« ويتزل من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان »

فيصف الماء بمحصىين . . خاصية التنظيف والتطهير ، وخاصية

أخرى هي إذهب مس الشيطان .

وفي حديث شريف يقول النبي عليه الصلاة والسلام في علاج

المحسود :

« يتوضأ الحاسد ويمتسل المحسود من وضوئه » .

... من هذه أخرى يوصف ليذهب المسوس الروحانية الضارة
في حديث ...

فما هي تلك الخاصية العجيبة للماء ؟

... من شريف للبحث ، قد يتضح لنا بيانه في المستقبل .

وقد من البعض خطأ أن التداوى ليس من الإسلام وأنه نقض
... وقال البعض لرسول الله . . أنتداوى يا رسول الله . .
... واه قدر الله . . عقل ثم النبي عليه الصلاة والسلام . .
... فما نخرج شيء عن قدر الله . .

وفي الإسلام لمحات من الطب الوقائي لواتبعها البلاد الإسلامية
لاحتفت البلهارسيا والإنكلستوما من القارة الأفريقية ، ولوفرت
... التي تنفق على العلاج بلا جدوى .

... من النبي عن التبرز في الماء وفي الظل وفي طريق الناس
وفي حديث الثابت .

« ولا يبولن أحدكم في الماء ثم يتوضأ منه » .

اتقوا الملاعن الثلاث : التبرز في الماء ، وفي الظل ، وفي
... الناس .

وتنتك حلقه لبهارسيا مفرعة نتي لا تنهي . . .
في الماء . . . فتشقى اليرقات وتسيح إلى القواقع . . . ومن الشواهد
يخرج السركاريا ليصيب الإنسان من جديد ، فإذا كسرنا حبة
البول والتبرز في الماء . . . انتهت البلهارسيا إلى غير رجعة .

والنظافة أول الشعائر الدينية عند المسلم . . . فلا صلاة بغير
وضوء ولا إسلام بغير غسل ولا ملابس إلا الطاهر .

يقول القرآن :

« وثيابك فطهر » .

والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي نص على الطهارة
والنظافة والاغتسال .

وقد وضع الإسلام الأسس الثابتة للصحة النفسية ، وذلك
بالصبر والتوكل والتسليم والتفويض والحمد والشكر بعد الاجتهاد
وبذل الوسع .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

« عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة
الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

لا يأسو من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم
الكاثيرون .

وذلك هو الطب النفسي الإلهي الذي عجز فرسان الطب النفسي
عن أن يلحقوا به والذي مازال هو الباب الوحيد للسكينة والأمن
حيث تسد جميع الأبواب .

في مسألة الخير والشر

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لا ينتهي .

وما زلت أحد من يستوقفني في الطريق ويسألني .. هل الإنسان
غير أم مسير !!!

والذين يقرعون أكثر تساؤلا من الذين لا يقرعون .

والقضية أزلية ولا ينتهي الكلام فيها ولا ينتهي الفضول إلى
كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر .

وعقدة الحكم في نظري هو ما يشعر به الإنسان في أعماقه .

فتلك الشهادة التي تأتي من الأعماق هي برهان لا يعدله برهان
وحجة لا تقف أمامها حجة .

والإنسان يشعر بالفعل في أعماقه أنه يختار في كل لحظة بين عدة بدائل .. وأنه ينتق ويرجح ويقاضل ويوازن ويتخير .. وهو يحاسب نفسه ويحاسب الآخرين .. ويفرح إذا أصاب ويتدم إذا أخطأ .. وكلها شواهد على أننا نتصرف انطلاقاً من بدهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون .

ونحن نرى يد السجن تتمد إلى صهيته فيضطهده في لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على الخفاف باسمه قسراً ويرغمه على التوقيع على ما لم يرتكب . ولكن هل نراه يستطيع مهما استخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهراً .

لا ..

ها تقف كل وسائل الإكراه عاجزة .

وسوف يفل هذا السجين حتى الموت حراً فيما يحب ويكره . حراً فيما ينوي ويضمر .. لا يستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره ..

حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصادف إغراؤه هوى قلبك ولكنه لن يستطيع أن يحملك على ما تكره مهما بلغت وسائله .

ودعك شاهد آخر على أن الله أعتق القلب وأعتق الضمير من كل وسائل الضغط والإكراه

لا حيب .. لا حقيقة .. وحرية القلب حقيقة .. وحرية النية حقيقة

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده ؟

وكيف تزداد حرية ؟

ومن هو أكثرنا حرية ؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشيئة الرب وكيف تتفق هذه المشيئة مع عقيدتنا في التوحيد ؟

تلك هي علامات الاستفهام .

ورغم قهر الظروف وكثرة الصوابط والموانع التي تحد حرية الإنسان ها وهناك إلا أن الإنسان تبقى له مساحة يتحرك فيها ويختار .. وتوسع هذه المساحة كلما اتسع عنده .

وقد أجاب الغزالي على هذا التساؤل الأزلي بكلمات فقال : إن الإنسان غير فيما يعلم مسير فيما لا يعلم .. أي أنه يزداد حرية كلما ازداد علماً .

وقد رأينا مصداق هذا الكلام في حياتنا العصرية وشاهدنا
الإنسان الذي تزود بعلوم البخار والكهرباء والذرة يتجول في الفضاء
بالبطائرات والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين البيئة ورأينا
مساحة حرته تزداد ومحال تأثيره يتضاعف .

وقرأنا في القرآن عن الذي عنده علم من الكتاب وكيف نقل
عرش بلقيس في طرفه عين .

وقرأنا كيف أحيا عيسى الموتى بسلطان من ربه .

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله إلى
السموات وكيف جاوز سورة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو
أدنى من ربه .

وذلك هو مجال الحرية الذي يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذي
يبلغ أعلى المقامات بالعلم الرباني اللدني وبالممدد الإلهي الإحساني .

فالحرية حقيقة .

والاختيار حقيقة .

والناس متفاوتون في هذه الحرية بتفاوت علمهم وتفاوت
مقاماتهم قريباً وبعيداً من الله لأن هذه الحرية لا تأتي إلا بالله ومن الله .

وغيره
الإنسان هي نفخته الربانية والتطلع إلى الحرية فطرة صمد
فطرها الله .

وكرر
عن اختيار الأحسن من وجهة بصره .

فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصحته وشهوته
لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هي الأحسن بين جميع الاختيارات .

وأما العارف بالله فهو لا يختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن
الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات وهو باختياره لربه يخرج
عن سبيل عن اختياره
وذلك هو

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة ومن
التوحيد ومن المعاندة إلى الانسياق مع الله في كافة أحواله
و

فإذا وقع في المعصية فإنه لا يصح له أن يقول : إن الله قدرها
عليه لأن الله لا يختار لنا إلا شريعته ولا يحب لنا إلا طاعته وهو
عارف صاحب الدعوى الذي ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة
ربه فهو إن عصي فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه
مارال عند نفسه لم يرجح .

بل إن العارف الحق يخرج نفسه من منطق الاختيار كلها ويدخل منطق الإسلام .. الإسلام لله وللشيئة الإلهية ..
يحتد في عمله لأن الله أحب له الاجتهاد ولكنه لا يخرج حواره ولا يفرح لنجاح ولا يياس على فشل لأنه فوض الشئ إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل .

وبخروجه من منطق الاختيار يخرج أيضاً من منطق المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب .

وتلك هي سنة الفرقة الناجية .. خروج من اختيار النفس من اختيار الرب .. وتبرؤ من الحول والطول .. وإسقاط للتدبير .

يقول الصوفي النفري إلهاماً عن ربه :

يا عبادي اتق الاختيار اتق المساءلة الله .

فأهل التوكل وأهل الحق والبركة لأهل التوكل المستقروا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية .

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التي تخطئ وتصيب .. فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة .

عن ح . ر .

من أسقط الاختيار وأسقط التدبير لا يعود هناك مجال لمساءلته فلهذا لا تقع في حقه معصية لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من حيزه .

وشاهد إسقاط التدبير في حق العارف هو كماله فلا يكون مع سائر الكمال .. ولا يصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك فذلك تكون حجة الله عليك بأنت كمال .

وهذا لا يبرئ الله المؤمنين الذين يدعون أنهم من أهله وحده دون أن يسلمهم ويثبتهم فثبت دعوى غريضة لا يصح أن تدع دون محقق .

نحسب من يتركوا أن يقولوا آمين وهم لا يفعلون ..
وتدع من قسبهم فيعسب الله ندين صدقوا ويعلمون
كذلك (٢) مسكوت

والمحب أن يمدح وأهل شكر ممدى بقولهم بحسب
وحسب ثم نرى جميع تصرفاتهم أبعد ما تكون عن هذا الاعتقاد
وإن المقروض لو كانوا صادقين في دعواهم بعدم جدوى الحرية

لفردية أن سمو هذه معرفة برهم برعوه (مادة جديدة) وانك
ما يحدث دائماً هو العكس فري تاريخهم تاريخاً دموياً خدراً الحكيم
تفردى . ستينى ليين محشر وما مدح لا ويحون ..
أن وما مهم لا مدح يتصور أنه يصنع - يح - وينسى أو حد
مهم أنه قد من حصص أن مادة تاريخية هي أن صنعت له وعيه
وعقته وموقفه .

فقد كانت - ديه تاريخيه هي التي أفردت من وانكر
والدين ووعى فكيف نت يا صاحبي تعود مدعى لنفسك أنت
تصنع تاريخ وانت أحد مصنوعات هذا التاريخ - لا أن يكون
قد عادت فافقت نفسك وتصورت لإر دنت عتوا على تاريخ
مادى لا تشفع هذا أن تعود فصنع تاريخ من جديد .

ورد كتاب بالردة لاسية عتوا على تاريخ . فحدث هو
سوى انكر على امدادى نكرويه في أن فستكم

فهذا أنتم قد تصورتمكم وضعتم طرء على وعدته ثم عدتم
فقدتموه على سدمه

وهؤلاء هم أهل صلاب عيب

أما نوحوديون وعشيون من أهل حياة مع هوى وخصه
فهؤلاء يقولون أنهم حذرو عوسبه وحياه الحقه عندهم هي

أن زك - حسك لا تعاد يعرف أو تقيد أو دس أو أخلاق وإنما
تعاد حسك كحسك ونوى فأب لا تملك غير خطط والشعنة
في معنى لا تعد -

و حين أن كلاً مدح قد سار حسوبه وفتح عريته وأسم
بروته . مستيه فكرته فهو آخر عدو ويا تصور أنه حر .
ع - لا ف كبره تنجده وتناسخه ثم أنه هو والله عبيد لله دون
- - ي - داخل مدح وانه

فإن كل من عبد الله

و كبره سوسه وما فيه من حب وفكر وحب وقوانين
مدحه حبه وتصرف عتية ووجوديه وفكر فوضوية هو
كبر عدوى به وهو مصهر من مصهر التحى الإلهى ومشينة
إلهية فلا شيء في يكون جرح عن مشينة لله ويا حرحت
عصر لأتدع عن رسده

و لكن من مدح عدو أو كره

ويك كل حرق هو فرق بين عرف وجاهل

يعرف درك حقيقته فأسلم . حياره وجرح عن نفسه طوعاً
وحد وكبره ونوى حث مشينة بكيتته راضياً سعيداً

والجاهل تصور أنه ليس عبداً لأحد .. وأنه لا مشيئة لأحد عليه
وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلا حيوانه) .

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدري .. وإنما هو
خاضع بالكرباج منسق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام وهو
يدور في ساقية وعلى عينيه عصاة كالثور يكدح لبطنه وشهواته .

وقد أخرجه جهله وعماذه من القرب إلى البعد .

ولأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة .

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف .

ولا حرية إلا لعارف .

ولا حرية إلا بالله ومن الله .

ولا تأتي الحرية إلا خلعة من الله .

إنما تأتي حرية العارف من أنه اختار ربه فخلق الله عليه حرته
وصفاته فأصبح العبد الرباني الذي يرى يبصر الله ويسمع بسمع الله
ويحيا بحياته وتلك هي الحرية القصوى التي يحرك بها العارف الجبال
والتي أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى
وعرج إلى السموات وجاوز المنتهى .. والتي أحياها عيسى الميت .

تحرر بمعنى التمرد على الشرائع وعصيان الأمر الإلهي
وسد حـ . عارف الخفية فهو مثل السباحة ضد التيار نهايتها الإنهاك
وعبـ عـ عرف

وكيف يكون الإضراب عن الطعام والشراب والتنفس حرية
وهو تكون إلا حرية الموت أو حرية القضاء على الحرية .

وكيف يكون اتباع الشهوات حرية والشهوات ذاتها عبودية
وكيف تزداد حرية بدخولك في جاكته جنس وخصوعك
حـ عـ عرف

إنما التحرر لا يكون إلا خروجاً من النفس وضروراتها
وسد عـ على هواها وشهواتها .

والعارف الذي خرج من نفسه واختار ربه هو بالمعنى العميق
قد حار حقيقته فهو ما خرج إلا عن نفسه الحيوانية الأمارة وتلك
نفس دويبة تدس حكامها حكم الجسد .

ما حقيقة كل شيء فهي منه عبودية مكنونية انى هي عن
ما . نسخة برصية عـ ودعها لله في الجسم

وهي المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم في المبدأ الأول .

والعارف باختياره لربه قد ابحار نفسه الخيفية (النفس امثال
التي خلقها الله في احسن تقويم) .

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين .
(٤ - التين)

ولقد ردنا الله إلى اسفل سافلين حينما أودع هذه النفس نعمة
في الخشوة الطينية وابتلاها بالشهوات والحيوانية .. وتلك هي
حياتنا الدون التي نحياها .. ولكن العارف بخروجه من هذه النفس
الحيوانية يسترد شفافته الأولى ويعيش نفسه الختسية ويكتشف
نسبه الروحاني باعتبارها نفخة من الله وهو بهذا يختار أصله وحقيقته .
يختار ربه .

« إنه إذن أعلى درجات الاختيار وإن كن في الطاهر خروجاً
من الاختيار وإسقاطاً للتدبير .

• • •

وحرية هذه الصورة لا تسى مع موحيد .. فاحد بعد
حرية إلا من الله وما جاءت حرية في أن يشاء إلا تمسك بحية
ودستور إلهي .. فقد أرادنا الله أحراراً .. ومعهصب من هذه
الحرية من الله اختلاصاً .

« وما تشاءون إلا أنا نأمر به (٣٠ - الإسراء)

ثم يا لله حيي قصي عيب قصي .. مسجل في كتابه فربما قصي

على كل إنسان قضاء من جنس قلبه ومن جنس ضميره ومن جنس
نفسه . من أراد حرث الدنيا مهد له فيها ومن أراد حرث الآخرة
هدى إليها .

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان
يريد حرث الدنيا نؤنه منها » . (٢٠ - الشورى)

« يا أيها الذين آمنوا لا يؤمنكم حذرهم حذرهم أحبا منكم » .
(١٠ - الأنفال)

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسييسره اليسرى
وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره اليسرى » .
(من ٤ إلى ١٠ - الليل)

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » ١٠ - البقرة .

« والذين اعتدلوا زادهم هدى » ١٧ - محمد

تأني التيسيرات دائماً من جنس النية .. فلا ثنائية ولا تصاد
بين اختيار الرب واختيار العبد .. وإنما الإرادتان تنقيان في عهد
واحد وإرادة واحدة .. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من
جنس نيتك .. لا تناقص ولا تضدية .

« وما دعه يبدل ما يخرج مكنون من أسرار »

« ما يخرج من كتم تكتنونه » (١٢ - الفرقان)

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان .

ويظن الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك .. فلا حرية
إلا به ولا تيسير ولا تمكين إلا بإدبه .

أما خارجاً عن الله .. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة :

فما سوى الله نار

وما سوى الله طلحة

وما سوى الله قيد

وسبحان الذي أمرى بعده

فلا سريان لنا إلا على جناحه

ولا نفاد من أقطار السموات والأرض إلا بسلطانه .

ولا حرية إلا به

ولا نور إلا بنوره .

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام .

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله .

أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له .. تقدست أعتابه عن الند
والصد والصاحبة والولد والشريك والشبيه .

الحبر الإلهي

بضعة حدث « سبيمة » بهم « ٨٠١ » حبيب الصف شتركت
مع أحدها ١٧ سنة في قتل روحها صرباً وحنقاً ثم دمجت عبيه
وأكلت أعضائه وهو ميت .. هكذا تقول اعترافاتها المفصلة أدم
وكيل النيابة والقاضي .. وهكذا شهدت الوقائع كما تشهد الجثة .

قرأت الحادث مع الألوف الذين قرأوه وشعرت معهم بتلك
القشعريرة الباردة والفضول إلى معرفة هذا الحادث لغريب في
وحشيته .

هل يمكن أن يبلغ الغل بامرأة إلى هذا المدى .

ومادا يمكن أن تكون صورة هذا الوجه الذي يأكل الميتة .

طالعتني في محن النساء بالقاطر امرأة وسيمة دقيقة الملامح
أسنانها جميلة كصفين من لؤلؤ .. على وجهها سكينه وطمانينة ..
نصلي وتصوم وتنام نوماً هادئاً عميقاً .. وكلامها كله عن رحمة الله
وأمر الله وحكمة الله .. وكأنها رجل صوفي ضل مكانه .

أيمكن أن يخالف الطاهر الباطن إلى هذا الحد .

أيمكن أن تخدع الصور وتكذب العين واليد واللسان .

أيمكن أن تصنع الحياة كلها تمويهاً .

وكيف يخفق الله للحقائق الشعة وحرها جميلة .

وما الدافع الذي أخرج من الباطن كل هذا الشر الخفي .

وما الذي هتك الحجاب وكشف النفس على ما هي عليه .

الزوج تزوج عليها ..

هذا أمر عادي في البدو ..

وهو يتكرر في تلك البيئة دون أن تأكل النساء أزواجهن .

الزوج طلق الزوجة ثم ردها ..

كان يسىء معاملتها أمام الزوجة الجديدة ..

أهي غضبية للنفس وللكرامة ..

ولكن الزوجة اعترفت بأنها كانت على علاقات متعددة مع

رجال متعددين أثناء الطلاق فهي لم تحفظ لنفسها كرامة ..

كيف لا يبدو كل هذا الخراب النفسى على ذلك الوجه الجميل

السميح .. ومع بعض الحادىء كآته وجهه قديس . تذكرت رجلاً

حبيلاً ربيته ذات مرة . كان حبيلاً فتناً مقتول العصل حبيب

نصوبة كآته حم سيبا . وكن مهتماً يتكم بيرة خصيصة . وكن

يخجل بصرته في حياء .. ثم تبيى في فيما بعد أنه محبوع يعالج

باصدمات كهرومائية .

كن صرح رحل حراماً مصفاً

وكن حقيقته الحوى

وكن فارغاً تماماً ومجوعاً من الداخل .. إلى هذا المدى يمكن

أن تكذب الصور وتخدع الأشكال .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم وإنما ينظر إلى

قلوبكم وإلى أعمالكم » .

في ليلة الجريمة عاد الزوج إلى زوجته بهدية من الحلوى

ليصحبها . لم يكن يدري رعم سنوات لمعشرة الطويلة أنه يتم كسر

لبنه مع ضمع .. قتلته في لحظة غزل .. كيف واثتها الشجاعة ؟

نفس السؤال يلح على باستمرار .

كيف تتنكر الحقائق في غير ثيابها .

ويلبس الناطل الحق ..

ويلبس القمح الجمال ..

وتلبس الجريمة الحب

وكيف يخلق الخالق هذه العنوت الحيلة لهذه النفوس البشة،
كيف يصنع اسم في وردة ويصنع لعسل في عقرب ويخفي المتحجرات
في أقنعة من حرير .

أهَذَا مَصْدَاقُ الْآيَةِ :

« والله مخرج ما كنتم تكتمون » (٧٢ - البقرة)

أهو المكر الإلهي الذي يستخرج به الله النفوس ويمتحنها بعضها
ببعض ليوضح خباياها ومكتماتها وليخرج حقائقها ويكشف
شعائنها فإذا المرأة الحسية خلاداً ورداً بالرجل البشري ملاكاً .

هي لا تشعر بندم أو تأيب ضمير .. وبقينها أنها على الحق .

أيمكن ألا يعرف الواحد منا نفسه ..

لقد قال أبو بكر أنه لا يطمئن إلى أنه صار إلى الجنة حتى
ولو دخلت إحدى رجليه الجنة مادامت الرجل الثانية لم تدخل بعد ..
وذلك خوفاً من مكر الله .. خوفاً من أن يكشف الله في اللحظة
الآخيرة شراً مكتوماً في نفسه يدخله به النار الأبدية شراً، كان يكتمه
أبو بكر في نفسه دون أن يدري به أو يدري عنه .

١٣٠

ونبت هي دروة التقوى .

خوف الله .

وانتصب وعدم لأطمئن إلى مرءة نفس ونفسي وحنوها
من شرب .

وعدم الغرور بصالح الأعمال ..

وخوف المكتوم الذي يمكن أن يفتضح فجأة بالامتداد .

لم يكن أبو بكر من أهل الدعاوى ..

لم يكن يدعى لنفسه منزلة أو صلاحاً ..

ولمّا كان من أهل الحقائق ..

وأهل الحقائق في خوف دائماً من أن تظهر فيهم حقيقة مكتومة
لا يعلمون عنها شيئاً تودي بهم إلى المهالك فهم أمام نفوسهم
في رحمة .

وأمام الله في رجفة ..

وذلك هو العلم الحق بالنفس وبالله ..

فالنفس هي « السر الأعظم » .. وهي الغيب المطمئن ..

هي غيب حتى عن صاحبها لا تكشف له إلا من حلال
المعاناة .. وهي في مكر دائم تظهر وجهاً من وجوهها وتختفي ألف
وجه ..

والله غيب مطلق وخفاء تام .. وهو سبحانه ذروة المكر إن
صبح القول ..

لماذا وصف الله نفسه بالمكر ؟ ! ؟ وقال :

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (٣٠ - الأفعال)

وما الفرق بين مكر الله ومكرنا ..

وكيف يمكر الله .

الله يمكر لإظهار الحقيقة ..

ونحن نمكر لإخفائها ..

ولهذا كان مكر الله خيراً كله ومكرنا سوءاً كله :

مكر الله نور ومكرنا صمة .

مكر الله عدل ومكرنا ظم ..

وهل هناك أسوأ من مكر هذين لصعين من الأسماك للثورية

التي تأكل ابيته وتمتص لدم لرد وتوشوش بالحب وتضمر
الموت

شيء واحد في مظهر هذه المرأة العجيبة كان يتم عليها ..
هو صوتها ..

ذلك الصوت النحاسي المعدني الذي يخرج عالياً حاداً وتيباً
على الدوام وكأنه يخرج من أنبوبة معدنية وليس من قلب بشري .

صوت لا يبدو فيه حزن ولا فرح ولا عصب ..

صوت معري مجرد من جميع المشاعر ..

صوت أفرح أسمى لا يشف عن أي أفعال .. يعطيك الإحساس
دائماً بأن هناك شيئاً غير إنساني يتكلم وإنتك أمام حماد ينطق ..

تتكلم عن الحب كما تتكلم عن الكراهية ..

ننكم عن رحمة الله كما تتكلم عن انتقامه بعض لوجه الجاهل
والبره سحسية الرتبة .

يجس لمن يسمعها أن هناك شخصاً آخر يتكلم في داخلك ..
شيئاً أو حياً . أو متناً يتكلم من وراء خفاء ..

هل يمكن أن تفلت من شيء طين

«الله يقول أن الشياطين لا تتسلط إلا على أشباهها وأنه لا بد أن تكون هناك مشكلة ومجانسة بين اثنين ليتسلط واحد على الآخر..

« شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » (١١٢ - الأنعام) .

الشیطان لا يتسلط إلا على شیطان مثله حيث يمكن التواصل والتأثير بحكم المشاكلة ..

أما عباد الله فلا مدخل للشیطان عليهم ..

فإنه يقول للإبليس ..

« عبادى ليس لك عليهم سلطان » : (٤٢ - الحجر) .

فلا حجة لمن يقول .. تسلط على الشيطان .. فتحن نرد عليه قائلين .. (لأنك شيطان مثله) .

ولمن يتصور أن المكر الإلهي يناقى العدل .. نقول بل هو عين العدل .. فإنه لا يمكر إلا بماكر .

« يمكرون ويمكر الله » . (٣٠ - الأنفال) .

« يكيّدون كيّداً وأكيّد كيّداً » . (١٦ - الطارق) .

وحقيقة الأمر أن الله يسلط على الإنسان الذى يحتج شيئاً في

نفسه إنساناً آخر يحتج شيئاً في نفسه .. وهذا منتهى العدل .. بل نحن أمام ميزان مضبوط تماماً .. ففي كلتا الكفتين نفس مأكرة حتى شتاً

ثم أنه من تماكر الاثنين بعضهما ببعض تظهر الحقيقة ..

وهذه هي الدنيا

ولهذا خلقها

لإحقاق الحق

ما خلق السموات والأرض إلا بالحق .

وهذا عين الخير في أمر خلق الدنيا رغم ما يبدو من دم وجريمة وشر وبشاعة .. فالعبرة بالحوادث ..

وشرور الدنيا زائلة مهما استحسنت ..

ولا أهمية لشر زائل مادام سوف يكشف لك في الختام عن خير باق ..

ولو فكر الواحد منا في الأمر تفكيراً هادئاً ولو تأمل ما يجري في الدنيا حوله في عمق لأدرك أن الأمر بجاد رغم ما يبدو في الظاهر

من هزل وعبت فكل شيء محسوب وكل شيء يجري بموازن
دقيقة .

ومن لما كروا الدهر وكل واحد من يتصور أنه
يخطط بفطنة .. وذكاء .. نحن دون أن ندري نكشف بعضنا
ونكشف أنفسنا من خلال مآزق الشطرنج المتوالية التي ترجنا فيها
المقادير ونفتضح عبر هذا الفعل المتسلسل الذي اسمه الدنيا حتى
لا تبقى فينا بقية .. ثم نموت وقد ظهر المكتوم .

والذين يدركون تمام الإدراك لب القصية تصيهم الرجفة من
الرأس إلى القدم .

إن ما يجري في هذه الدنيا ليس عشا .

بل إن الأمر حدد بصورة محيطة .

وفي كتاب الموقف والمخاطبات لأمير عبد الحار من الحسن
النهرى يقول الله لعبد ..

أنا أقرب إليك من نفسك ..

أنا أقرب إليك من عطفك .

ليس بيني وبينك بين

وليس بيني وبينك أنت .

وتلك هي حصرة لإخية انشامه . حصرة اندي لا يتم
ولا يغيب ولا يغفل ولا يعزب عنه مثقال ذرة .. الذي يقلب
المنوب والأبصار فيحنو معاديه ويكشف أسرارها . ذلك هو
الحق .

والذي لا يخاف الحق ولا يعرف الحق .. فإنه ما يخاف
وما عرف .. ولن يعيد بعد ذلك أي علم ولو حصل علوم الأولين
والآخرين

وبرجل ماكر يدى سالك دائماً . كيف يذهب يدان
متحضر في السويدي إلى جهنم .. كيف يذهب ذلك الرجل الأبيض
الطيف جميل بتصيف أستاذ التكنولوجيا في جهنم ويذهب حاح
معشال يسكن عند الكعبة إلى الجنة

محول له بعد ذهب ذلك حاح يدى يسكن عند الكعبة بالفعل
يدى الجنة من الآن . إنه من الآن في الجنة .. لقد أدرك روح
المسألة وتصل بالعلم الكلي المطلق .. أما صاحبك فمارب يشتغل
بالنحاس والحديد والاسحقيز .. مارل مشغولاً بالمسألة ذاتها ..
لم يدرك روحها ..

وهذا أمر بعيد في اندي ولكن لا قيمة له بعد ذلك والله
لم ننبأ عن كشف الحديد والمحتير بل أمرنا به .

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومافع للناس » .

وذلك أمر بإدراك المافع في الحديد ..

ولكن دين الله يقتضى منا التوكل وراء ذلك لإدراك روح المسألة بحثاً عن نفع آخر باق .. وبذلك يجمع المسلم بين نفع الدنيا ونفع الآخرة فالحديد والمنتجنيز ليساً كل شيء .. فالحاج الذى يبكى عند الكعبة ليس معطلا .. فهو يبكى بسبب علم آخر عميق تعلمه .. هو علمه بنفسه وعلمه بربه .. وهو واقف على عتبة من العلم أعلى من صاحبنا أستاذ التكنولوجيا فى السويد الذى وقف علمه عند الحديد والمنتجنيز .

وأين هذا العارف بنفسه والعارف بربه .. من هذا العارف الآخر الذى توقفت معارفه عند المادة وقوانينها .

إن المفعل حقيقة هو الذى عرف المادة وغفل عن رب المادة ..

وتحصيل العلوم المادية سهل وهو فى الكتب وفى المدارس وفى مصر وحدها أكثر من عشرة آلاف حامل دكتوراه وأكثر من مائة ألف حامل ماجستير ودبلوم .

ولكن كم فى هذا البلد من الآحاد أو العشرات ممن يمكن أن يقال عنهم من العارفين بنفوسهم والعارفين بربهم .

لقد حصلت علوم الطب وأنا شاب ..

وهأنذا أكتمل دون أن أصل إلى معرفة بنفسى وربى .. فتلك درجة لا يبلغها إلا أفراد ..

هؤلاء الذين قال عنهم ربهم :

« إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكى » . (٥٨ - مريم)

فذلك حال صاحبنا الذى سجد باكياً عند الكعبة ..

وتلك مرتبة ومنزلة ودرجة بينها وبين صاحبنا النظيف الطيف الذكى المتحضر أستاذ التكنولوجيا السويدى سبع سموات .. هذا سيد من سادة الأرض صاحب ملك محدود فى زمن محدود .. وذلك سيد على الأولين والآخرين له فى السموات ملك بلا حدود فى أبد بلا تناء ..

من هو المفعل بالحقيقة ..

ومن هو المائر بالحقيقة ..

ولكن نحن فى عصر مادى .. وذكر الجنة والسموات أمر يبتسم له أهل الدنيا وسادتها الماكرون ويضحكون فيه على سداجنته ولا أحد يهتم فى هذه الدنيا إلا بالربح العاجل ..

ولهذا اقتضى العدل أن يتعامل الله مع هؤلاء الماكرين ..
بالمكر الإلهي .. « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً » (٥٠ - النمل) .
وما هم فيه من رخاء وغنى وعلو .. هو استلراح وليس علواً .
« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

« أيجسبون إنما نمدهم به من مال وبينين نسارع لهم في الخيرات
بل لا يشعرون » .

« ومكروا مكراً وعند الله مكراً وإن كان مكراً لتزول
منه الجبال » . (٤٦ - إبراهيم) .

وصاحبنا الذي لا تنفذ له حجج إذا رأنا نحكم حول
عنفه حلقات المنطق وإذا شعر بمنطقنا يوشك أن يسكت ما يلبث
أن يصرخ :

وماذا أساوى أنا إلى جوار عظمة الله .. ولماذا يعذبني الله وأنا
لا أساوى شيئاً .. وهل أنا إلا ذرة تافهة ..

وهو تواضع كاذب وانكسار مفتعل لأنه لو شعر حقاً بعظمة
ربه وبصهامة نفسه لخر ساجداً باكياً أمام هذه العظمة ولشعر بالخشوع
أمام تلك الهبة .. إنما هي الملاحاة والجدل .

و ر - عني مكره فتعول :

سحت تافهاً عند ربك ولا حين الشأن فقد نفخ حيث من روحه
وسجد لك ملائكته وسخر لك أكوانه كلها وأعطاك التسرمد والخلود
ومحبت الحرية .. إن شئت كنت ربانياً .. وإن شئت كنت شيطانياً ؟
فأين هو ان الشأن من هذا كله .

س هو نحاييل الماكرين حينما يصبح ظهرهم إلى الحائط وتتقطع بهم
الحجج فيتمسكون ويتأوتون ويتخافتون ويتهايمون .. هل نحن
لا درت يارب

وهل للتراب أن يتناول ..

وهل للطين عندك شأن يساوى أن تحفل به وتعذبه ولو أحسن
الواحد منهم بالفعل أنه تراب ولو انطلقت أعماله وأقواله من هذا
الإحساس لكان له مع الله حال غير الحال وشأن غير الشأن .

ولكنه المكر ..

ومهما تمكروا .. فالله أمكر ..

عن الظاهر والباطن

توقفت أمام صفحة البورصة وسوق الأوراق المالية أتابع
تلك الرقصة المجنونة للأرقام .. وأسائل نفسي .

ترى ألتا نحن البشر أيضاً بورصة وأسعار تنخفض وترتفع
ويبور الواحد منا أحياناً ويروج أحياناً وتفلس قيمته أحياناً أخرى.

إنى أرى الطفل الرضيع ابن المليونير تتخاطفه العصابات
وكأنه قطعة من الماس وتطلب فيه الملايين فدية .. ثم أرى نفس
الشخص في شبابه إنساناً متلاقاً مستهتراً .. ثم أراه في رجولته
مجرماً وقاطع طريق .. ثم أراه في شيخوخته معلقاً على حبل
مشتقة ولا أحد يعبأ به .

وأرى طفلاً آخر يبدأ حياته في ملجأ للأيتام .. ثم أرى نفس
الطفل في شبابه وقد أصبح فتاناً ونجماً متألّقاً مثل عبد الحليم حافظ
توزن بضع ساعات من صوته بالملايين .

وأرى السجين في زنزانه لا يسأل عند أحد يصبح بين يوم
وليلة زعيماً مثل لينين يحكم نصف العالم بنظرياته ثم أراه يموت
فتتحول جثته إلى صنم معبود وكعبة يطوف حولها الألوف .

وأرى النبي العظيم يوحنا المعمدان تقطع رأسه بأرنخص سعر
قطعت به رأس ... تلبية لهوى امرأة عاهرة ترقص عارية أمام
الملك .. فيقول لها الملك الخمور .. أطلبي ما تشائين ثمناً .. فتقول .
أطلب رأس هذا الرجل فيقطع لها رأسه على طبق ..

وأرى الراهب ستالين يتحول إلى الملحد ستالين ثم إلى الحاكم
الجبار الذي يحرك التاريخ والدكتاتور الفرد الذي يعز ويذل
ويخفض ويرفع بإشارة من يده ، ثم أراه بعد الموت يفتكس إلى
مجرم ويدينه شعبه وينبش تابوته وتحرق جثته ويلقى بها في حفرة .

وأرى الطفل البليد في المدرسة يصبح أينشتين .. وأرى
موظف البنك يصبح يوهان شتراوس .. وأرى فان جوخ الذي
عاش ومات شحاذاً يتحول بعد موته إلى بورصة متحركة من
الملايين يتسابق تجار اللوحات ولصوص التحف على تركته الفنية
التي لا تقدر بثمن ويصبح توقيع المزييف أغلى من توقيع مليونير
حقيقي ..

وتلك أسعارنا بين الهبوط المجنون والارتفاع المجنون في تلك
البورصة الدنيوية التي تبدو وكأنها العبث .

لا يتجو حتى الأنبياء من هذا القلب في الأحوال بين البسط
والقبض .

وما هو بالعبث وإنما هو تمحيص وفرز وفصل للعناصر
بالغليان والتبخير والتبلور .

ولكنها دائماً بورصة خادعة لا تدل قلباتها السعيرية الظاهرية
على قيم الناس .. فإن النبي العظيم يوحنا المعمدان الذي قطعت
رأسه بأرنخس الأسعار بمجرد إشارة من امرأة بغى ومات كأهون
ما يكون الموت وألقيت جثته في حفرة دون احتفال ودون
مشيعين .

ذلك السعر البخس لرجل لا يدل على هوان صاحبه عند الله
كما أن لينين الجالس على عرش نصف الكرة الأرضية والذي مات
فشيعته الملايين ورثاه الشعراء وتحول جسده المحتط إلى صنم معبود
وتحول مرقده إلى كعبة .

ذلك السعر التشريقي الرفيع لرجل لا يدل على شرف صاحبه
عند الله ..

ولأنما هي قيم ظاهرية .

ولأنما هي بعض ما تتقلب فيه النفس أثناء عملية تحجيصها
بالغليان والتبخير .

ولا تنكشف القيم الحقيقية للنفوس إلا بالاستخلاص الأخير
لجواهرها وإخراج مكنوناتها في ذلك اليوم المائل يوم يبعثنا الله
بعد موت .. يوم تبرز حقائقنا عارية بين يدي خالقها في تلك
الساعة الرهيبة التي وصفها الله بأنها ستكون « خافضة رافعة »
حيث تعود فتخفض ملوكاً جبارين إلى حضيض الهاوية وترفع
رجالاً صالحين كانوا في حياتهم عاملين مغمورين لا يساوون شيئاً
إلى قم العزة والكرامة ..

وحينذاك .. وحينذاك فقط .. تثبت الأسعار إلى الأبد
قالأعلون يظلمون في عليين والأسفلون يظلمون في الأسفلين وتصبح
مكانة كل شخص دالة عليه ..

فذلك هو عالم الحق .. حيث كل نفس قد انكشفت مترلتها
الحقة ... وبلغت رتبها الحقة .

وانتهى ذلك التقلب في الأحوال الذي جعله الله في الدنيا امتحاناً
للعقول وفتنة للنفوس ..

وأني حينما أستعرض حياتي وما تداول عليها من تقلبات

وما لابسها من انخفاض وارتفاع .. أشعر أني ألامس هذا
الممر ... فإن ما باشرته في هذه الحياة من متع ولذات شعر
الآن بانصرامها وأنا أتأملها من البعد أنها لا شيء تماماً .. وأن
حكمها حكم الآلام والمشقات التي انقضت هي الأخرى وانصرفت
بل ربما كانت المشقات أكرم على نفسي بما خلقت من بصيرة
وفكر واعتبار وجلد ومصابرة وبما أضافت إلى نفسي من أبعاد
إيجابية .

ولذا ما أراني وجدت نفسي مرة أهفو إلى العودة إلى صبوة
أو أرغب في استعادة لذة أو أهدد حينئذ إلى أن يكر في العمر
راجعاً ليقف عند متعة عزيزة ...

ذلك ما أراني قد شعرت به أبداً ..

ربما لإحساس شديد الوضوح بأن نهر الوعي يضيق كلما
رجعت إلى الوراء مع صبوات العمر . يضيق بلدته كما يضيق
بآلامه .. وأن الوعي دائماً إلى اتساع والرؤية إلى اتساع والعقل
إلى نضج والشخصية إلى تكامل كلما تقدم العمر ..

ولهذا لا أحب أن أعود إلى نقص مهما حمل إلى هذا النقص
وعوداً باللذة .. فلائي لا أراها الآن على البعد لذة ... بل أراها
مرضاً وحققة وأرى القيم الظاهرية لتلك البورصة الدنيوية تنتكس
في وجداني وكأنما تقوم قيامتي

الخافضة الرافعة من الآن .. فتقلب المدلولات فإذا باللذة ألماً
وإذا بالألم لذة .

وتلك صحوة لا أساوم بها على أى متاع ..

وإذا كان في العمر لحظات أعتر بها فعلا فهي لحظات الصحو
أمثال تلك اللحظة .. حينما تتراءى الحقيقة من خلف سراب الوهم
وتلامس الروح السر من وراء لثام الواقع فأرى النفوس على
ما هي عليه حقاً وليس كما تصفها بورصة الواقع بأسعارها
المخادعة ..

وهي دائماً لحظات تشملها الرجفة والرهبة والخوف من أن
ينكشف جوهرى أنا الآخر في الختام على ما لا يرضيني .. وأن
أكون من أصحاب المعادن الدنيا .. التي هي حطب النار ..

وذلك هو الغيب الخفيف في أمر الخواصم التي لا يعلمها إلا الله .

فهرست

٣	القرآن كائن حي
٢١	النفس والروح
٣٣	لماذا خلقنا الله
٤٩	الصوفي والبحر
٥٧	من أنت
٦٧	أسلوب خطبة الجمعة
٧٩	إسرائيل تحرف الأناجيل
٨٩	العلوم الدرية والإسلام
٩٩	الإسلام والطب
١١٣	في مسألة الخير والمسير
١٢٧	المكر الإلهي
١٤٣	عن الظاهر والباطن